طبعة أولى

عام ١٩٧٦

Esquisse

d'une psychologie Scientifique

Par Sigmunnd Freud .

جميع الحقوق محفوظة

دار القلم ، بيروت ـ لبنان .

Copygright 1975 ,

Beirut , Lebanon ,

نظرة عامة
في
السيكولوجيا العلمية

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمة

فارس ضاهر
استاذ في أكاديمية العلوم

دار القلم
بيروت - لبنان

كلمة المترجم

مسلك العقلاء ومنهل ناجع للشفاء

« ولعمري إن العيون لتخطىء ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إنْ كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس » (الجاحظ)

جـاز الاعتقاد بحكم الاختبار ولزم الاقتناع بأمور التعليل والانقياد بقوانين التحليل والتثبيت . فالانسان عرضة للتأثيرات وبنية معقدة تحث العلماء للاستقصاء والافتراض والتمييز .

فلا انتهى مطاف ولا حُسم أمر ولا اكتُشف سر بمعنى المطلق تماماً . لكل مفهوم دليل معارض أو مؤيد ، إنما لكل تعليل علمي ، تحقيق اختباري حسي مقنع ... وذاك الاقناع نسبي ، ولكنه رغم نسبيته ما يزال نقطة الانطلاق وركيزة التوجيه نحو توضيح الدوافع الغامضة وسبر اعماق النفس وذلك بحكم اكتشاف آثار ذاكرية بعد حالة مرَضية تُعرف على حد تعبير فرويد ، رائد التحليل النفسي ، بالكبت داخل الوجدان اللاواعي . (das Unbewusste) .

مثل هذا الاعتقاد بفعالية الاختبار ، يبعد عن الأحكام أوهام العدالة التقليدية ويفسح مجـــالاً أمام الطاقة العقلية لتحديد ذنب القاتل بمقتضى تحليل نفسه ، قبل اصدار الحكم بالإعدام مثلاً : فيجوز أن يكون القاتل مصاباً بحالة تعرف بفقدان لحس المسؤولية الأخلاقية[1] لمن يُصاب بالشلل الجزئي الناتج عن صدمة نفسية . أيجوز اعدام مثـــل هذا المريض اللاواعي ؟ من هو المسؤول الفعـلي ، إذْ هو مصاب بفقدان الإحساس بالمسؤولية ، أهو المجتمع الفاسد أم البيت المنهار أم العصر المشحون بالأخطار النووية الراعبة ؟!.

مثل القاضي اللامبالي بأصول التحليل النفسي الفرويدي كمثل أم جاهلة غاضبة وهي ترغم طفلها على تناول الطعام رغم أنفه ... تارة بالضرب المبرح وطوراً بالتهديد والعويل !.. ومـا عساها تفعل لو علمت حقيقة الأمر وهو أن الطفل مصاب بمرض نفسي يُعرف باسم (أنوركسي) أي بفقدان الشهية[2] ؟! وما عسانا نفعل تجاه جندي محارب أصيب بمرض فقدان الذاكرة كلياً [3] أو بالهذيان الهستيري [4] أيام معركة طاحنة .. وبعد مشاهدة مجازر رهيبـــة ؟! أنعيد اليه العافية بواسطـة الحبس والتهويل ؟

وما عسانا نفعل تجاه المصاب بالأفونيـــا ؟ أنضربه بالسوط كما كان

---

(١) amoral

(٢) Anorexie

(٣) Amnésie

(٤) Ecmnèsique الهذيان الهستيري المختص ببعض ذكريات الماضي .

يفعل الأسياد بالمريض أيام القرون الوسطى في أوروبا لطرد الشيطان من داخل الجسم ؟!

أيصدح طرباً هذا المصاب بعلة فقدان النطق أو الصوت بعد الضرب والجلد ؟ هذا لعمري اسلوب الجهال ، إنما اسلوب العقلاء يرتكز اصلاً على دراسة اسباب العلة ، ومن عرف الاسباب اكتشف سر الداء واهتدى بحكم الاستقصاء إلى الدواء . وكيف يتم الشفـــاء بمقتضى حكمة العلماء ؟ استناداً إلى فرويد ، يشفى المصاب بفضل التوجيه الايحـــائي من قبل العالم النفساني لاعادة واعية للشعور المكبوت . ومثل هذا الكبت سبب كل داءٍ ! .

جاز القول بحكم الاستنتاج بان الأهل هم المسؤولون عن عـلة الأطفال وأن البيت هو مصدر عافية أو بـــلاء .. ويرجع ذلك إلى جهل أو حكمة الآباءِ في مدى حماية الأولاد من عوامل الانحراف كارتكاب الزنى والقتل والسرقة والكذب ، ومن عوامل الشلل كعدم القدرة على المشي[١] وكالمشي بشكل متأرجح[٢] وكعدم الشعور بالألم[٣] وكالتصلب العضلي اللاإرادي[٤] ، ومن عوامل اضطرابات نفسية عديدة كالخوف الغامض[٥]

---

(١) abasée

(٢) astasèe

(٣) Analgesie (أنلجيزيا)

(٤) Contracture

(٥) apprehension

القرف الشديد [١] والضعف البصري [٢] وحـالة الاختلال الوجداني [٣] والصعوبة في التنفس [٤] (أي الشعور بالاختناق .) والشعور بالضجر والمرارة [٥] وحالة الانهيار المعنـوي أو الجسمي [٦] والمصاب بالصرع [٧] والانحراف العقـلي [٨] والتهتهـة [٩] والتعصب [١٠] وما شابـه هذه العلل العديدة التي تظهر دوافعها جلية أمام الفاحص المستند إلى نشأة العوامل المسببـة لتكوين المرض [١١] وإلى عنصر بيولوجي وراثي يعرف باسم جين [١٢] وإلى اكتشاف العامل المحرّض والمسبب للحالة الهيّاجية [١٣] إذْ لا شيء يـأتي من لا شيء (Ex nihilo nihil) ، وإلى تحديـد منطقة التناقل الهستيري الوراثي [١٤] وإلى حصيـلة المعلومات الاحصائية عن المريض [١٥] وباختصار : جـاز نيل الشفاء بفضل تصريف الانفعال المكبوت [١٦] . وهنا الخطأ الفادح ، إذْ اعتقد البعض من الناس بأنه التبرير الكافي للانفلات الجنسي الجارف والذي يؤدي بالضرورة إلى الخلاعة والفوضى والانهيار في مختلف الموازين والأحوال . مثل هـذا التصريف المكبوت أصلاً ، يولّد نشاطاً طاقياً ومثل هذا النشاط قابل لالتزام

---

(١) Aversion

(٢) ambylopie

(٣) chizophrenie

(٤) Dyspnee

(٥) Dèplaisir

(٦) Depression

(٧) Epilepptipue

(٨) Dèmence

(٩) Bègaiement

(١٠) Intolerance عدم تسامح ، تصلب .

(١١) genèse

(١٢) gene يرتكز عليه مذهب الجمع من حيث انتقال الصفات الوراثية .

(١٣) Excitabrilite سرعة التهيج

(١٤) Hystèrogêne

(١٥) Anamnèse

(١٦) Defoulement

المسلك الذي تثبته ملكة الادراك لدى الشخص الواعي فتوجهه نحـــو هدف بَنـّاء كالعمل الفني أو الفكري أو المهـني فيما يخص الزراعة أو الصناعة أو أي عمل تكنولوجي . . فالبطالة تساعد مثل هذا التصريف على التزام الخط الجنسي المنحرف . . بالاضافة إلى البطالة . وهناك قـلة التغذية أو الحرمان منها [1] ، التي تسبب تدفقاً طاقياً جارفاً غير مبالٍ بعواقب الأمور اطلاقاً ! . . فالحرمان كالكبت تماماً يدفع بصاحبه نحو أعمال انتقامية لا يعتبر سيكولوجيـــاً مسؤولاً عنها بأيـة حال من الأحوال .

طبعاً أن إدراك أبعاد هذا الكتاب العلمي الدقيق ، نسبي . فالعالم النفساني والاختصاصي في الطب العصبي قادر على سـبر أغواره بشكل أعمق .. هذا لا يعني بأن الفائدة مقتصرة على العلمـاء فقط بل بإمكان القارىء العادي الاستفادة من تحليل منطقي اختباري مرتكز على دراسة جهاز الخلايا العصبية ، وذلك استناداً إلى شرح واف وافر لأصول التحليل النفسي .. ونأمل تحقيق مثل هذه الغاية النبيلة في كتاب مستقل يختص بالتحقيق والتوضيح على ضوء ما قصده فرويد وأنجزه .. وذلك خدمة للقارىء وللحركة الثقافية العلمية التي تجتاح العالم العربي في يومنا الحاضر بعمق ومسؤولية ، استناداً إلى تخطيط مسبق وتوجيه عقـــلاني علماني جامع ، قصدي صريح : ترجمة حرفية لأفكار فرويد المهمة التي أقامت عصره وأقعدتـه وتطبيقها في حياتنا الاجتماعية .. كي نستطيع توحيد الكلمة بعد التفرقة . وذلك معقول بفضل تخطيـط سيكولوجي جماعي

---

(١) Inanition

تحليلي . وبواسطة هذا التخطيط نبني دستوراً جماعياً يوّحد أمة العرب ولا يفرّقها .. إذْ يقول اسحق اسيموف في كتابه « ينابيع الحياة » (الحياة تدب في الشجرة) : .. إن المجموعة التي تتقدم غيرها في « المعيشة الجماعية » أوفر حظاً في البقاء .

وهذا صحيح أيضاً بالنسبة « لنوع » الانسان ، والتاريخ حافل بالأمثلة عن شعوب لم تتمكن من التعاون فيما بينها فوقعت فريسة غيرها من الشعوب التي ربما كان أفرادها أقل تقدماً إلا أنهم يتميزون بتعاونهم في العمل . وما فاجعة قدما اليونانء ببعيدة عن الأذهان ، لقد تعاونوا زمناً فتغلبوا على الفارسيين ثم فشلوا في الاتحاد فيما بينهم فسقطوا أمام المقدونيين . على هذا المنوال يتشعب الشرح ويجتاز حدود المقال ، غايتنا علم النفس حالياً ، لذا جاز القول بأن الكلام طـال ولزم الانقطاع من حيث التعريف والتمهيد .. إذْ خير بيان عن قيمة التأليف عمل المؤلف بالذات .. والله ولي التوفيق وعليه الاتكال .

فارس متري ضاهر

بعض الكلام على العمل الفردي

كانت أغلب الميادين في نهاية القرن التاسع عشر مرتكزة على أسس علمية ، لكن التقدم في معالجة وشفاء الاضطرابات العصبية والعقلية لم يلاق سوى الفشل . وذلك بحكم المواقف المتعلقة بالقرون الوسطى . مثلاً ، التنويم المغناطيسي ، كما تم تطويره انطلاقاً من مفهوم أنطون مِسْمر Anton Mesmer منذ قرن، كان يعتبر مهماً من الوجهة التجريبية ، ولكن لم يؤخذ بعين الاعتبار كقيمة علاجية ، وحدث شيء قليل من التقدم تجاه التطبيق التقني للمرض العقلي . غير أن شاركو Charcot أستاذ فرويد ، سدّد صفعة قاسية للتفسير الكنسي فيما يخص الاضطراب العقلي .. عندما برهن بأن التنويم المغناطيسي يسبّب اصطناعياً الهستيريا . وفرويد بذاته قد تأثر بشكل خاص برأي شاركو بحيث قال أن العوامل الجنسية متورطة في السببية [1] المتعلقة بالنوبات الهستيرية والغشيات ؛ وسيظهر هذا الرأي فيما بعد في نظرية فرويد الخاصة بالكبت .

---

(١) السببية Causation المبدأ القائل بأن لكل مسبب سبباً .

في عام ١٨٨٢ ، بدأ فرويد بدراسة ومعالجة برتا بابنهايم [١] (التي ذكرها في مؤلفاته باسم آنا أو ..) ، المريضة الأولى لدى بروير [٢] . إن المجال الواسع للأعراض الهستيرية الموجود لدى برتا ، قدّم لفرويد مادة غنية لاستقصاء الأسباب . وكانت أولى ظاهرة لأهمية الذكريات المختبئة بعمق وقد تم اكتشافها عند التنويم المغناطيسي . بالنسبة للأسئلة المتعلقة بمركز ووظيفة هذه الذكريات الدفينة ، اقترح بروير بأنها تتعرض للاصابة أثناء حالة الوعي المُضعف . وتابع فرويد المسألة لاحقاً ، وشعر بأن اختفاءها من القنوات الارتباطية [٣] العادية (العقل الواعي) كان نتيجة لعملية متعاقبة سماها الكبت ، والتي ستتمركز في العقل اللاواعي حيث قادها اليه ، العقل الواعي . إن أهم وظيفة للكبت هي الدفاع ، يعني حماية الشخص ضد التأثيرات المؤذية لاقتحام الذكريات المختبئة داخل الوعي . أدرك فرويد منذ الحالة الأولى ، الأمر التالي : عند عملية تذكيره الذكريات القديمة والمنسية ، يجد المريض فرجاً – حتى لو أنه مؤقت – من الأعراض الهستيرية .

في البداية ، استعمل فرويد التنويم المغناطيسي ، كما فعل ذلك بروير ، للكشف عن الذكريات المختبئة ؛ ثم لاحقاً ، استبدل التنويم المغناطيسي بتقنية معروفة باسم حالة التداعي الحر [٤] ، بحيث يسمح للمريض بقول أي شيء يخطر بباله . وبهذه الطريقة يسبر حالته اللاواعية . هكذا ،

---

(١) Bertha Pappenheim (Anna O.).

(٢) Breuer .

(٣) ارتباطية associative .

(٤) free association .

مع مفهوم اللاواعي ، نظرية الدفاع ومفهوم الكبت ، أسس فرويد حقلاً جديداً لاستقصاء الأسباب وطوّر تقنيات علم دعاه : علم التحليل النفسي Psychoanalysis . وخلال هذا العمل ، ضاعف فرويد عدد الحقائق العلمية التي أمكن الحصول عليها بواسطة تطويق الأحلام ، الأحداث الذهنية التي تخطر في البال أثناء الحالة المُضعفة للوعي وتدعى النوم .

من خلال دراسته لأحلامه الخاصة ، لاحظ فرويد ما استنتجه في ذلك الحين من ظاهرة الهستيريا – بأن عمليات متعاقبة ذهنية عديدة ، لا تبلغ أبداً حالة الوعي وتُنزع من حالة **ترابط الأفكار** [1] مع تجدد نشاط التجربة [2] .

---

(١) ا) ترابط الأفكار associative connection أ)شيء مترابط في الذاكرة أو الخيال مع شخص أو أي شيء آخر .
ب) تداعي المعاني أو الخواطر أو الأفكار .

(٢) الكلام على عمل فرويد متشعب الأطراف ، يستوجب التطويل والتحقيق لادراك أبعاد التحليل السيكولوجي . لذا اقتصرت على القليل ، على أمل متابعة مثل هذا التوضيح في كتاب خاص ، كما ذكرت ذلك سابقاً ومراراً (المترجم) .

المقدمة

لقد تم تأليف هذه المخطوطة خلال فصل الخريف ، عام ١٨٩٥ . بدأ فرويد بتأليف القسم الأول والقسم الثاني لدى عودته في القطار ، بعد لقاء مع فليس Fliess . كتب جزءاً من المخطوطة بقلم الرصاص ، ابتداءً من نهاية الفصل الثاني من القسم الأول . وانتهى من تأليف هذين الفصلين في ٢٥ أيلول . وبدأ بتأليف القسم الثالث في ٥ تشرين الأول عام ١٨٩٥ . وفي ٨ تشرين الأول أرسل الى فليس الأقسام الثلاثة .

في القسم الرابع ، عزم فرويد على دراسة سيكولوجيا الكبت التي يعتبرها « أساس اللغز » ، لكنه ما انتهى أبداً من كتابة هذا الفصل . وعند دراسة هذه المسألة ، تضاعفت ظنون فرويد بالنسبة لقيمة الآراء المعلنة في التصميم الاجمالي Esquisse . وما كاد أن ينتهي من عمله الذي التزمه حتى استولت عليه حالات من التردد . فمنذ ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨٩٥ ، بدا فرويد شكوكياً إذ قال : « إن الذهنية التي التزمتُها لتصور السيكولوجيا ، أصبحتْ غريبةً عني » . وفي رسالته بتاريخ أول حزيران ١٨٩٦ ، حاول مراجعة فرضياته المنسوبة الى النسب العكسية التي تتعلق

بالأنواع الثلاثة من الخلايا العصبية الخاصة « بالإدراك الحواسي » . وبعد سنة من تاريخ كتابة التصميم الإجمالي ، تطورت آراؤه حتى الدرجة التالية : وصف الجهاز النفسي بطريقة مماثلة تقريباً للوصف الذي ورد في « تفسير الأحلام » Interprétation des rêves . منذ ذلك الحين ، لم يعد يهتم فرويد بالمحاولات التي تهدف الى عرض الجهاز النفسي بلغة (العَصَبة ـ الفيزيولوجية) . وبعد سنوات معدودة ، أشار تلميحاً ، في العبارات التالية ، الى فشل مجهوداته في هذا الصدد : « لقد أثبتتْ كل الأبحاث بصورة غير مدحوضة ، بأن النشاط النفسي (البسيشيك) مرتبط بسير الدماغ وذلك بشكل أشد وثوقاً من أي عضو آخر . » وفي موضع آخر، يضيف قائلاً : « إننا نجهل الى أين يمكن أن تقودنا الاكتشافات ذات الأهمية غير المتساوية للأجزاء المختلفة من الدماغ وعلاقاتها الشخصية مع بعض مناطق الجسم وبعض النشاطات الفكرية . إن جميع المحاولات التي قمنا بها كي نستنتج من هذه الوقائع مركزة للعمليات الفكرية المتعاقبة ، جميع المجهودات التي تهدف الى إظهار الأفكار كأنها مختزنة داخل الخلايا العصبية وتسلك طريق الألياف العصبية ـ قد فشلت بكاملها . (فرويد الميتاسيكولوجيا ، ١٩١٥) . إن الأبحاث الحديثة المنسوبة الى فيزيولوجية الدماغ قد توصلت بمجملها الى ذات النتائج . (راجع في هذا الصدد إ. ض. أدريان فيما يتعلق « بالأصول العقلية والجسمية (الفيزيقية) المختصة بالسلوك » ١٩٤٦) [1] .

---

(١) Les origines mentales et physiques du Comportement. 1946. par E. D. Adrian. ادغار دوغلاس أدريان، طبيب انكليزي، ولد في لندن عام ١٨٨٩ ، واشتهر بفضل أعماله المختصة بالجهاز العصبي . حاز على جائزة نوبل عام ١٩٣٢ .

أما فيما يخص فيزيولوجية الدماغ ، فإن التصميم الإجمالي زاخر بالفرَضيات النفسانية الحسية ، بالأفكار النظرية العامة ، وبالإيحاءات المتنوعة . إن عدداً وفيراً من هـذه الأفكار ، بعد أن تتلقى التغييرات المستوجبة بالضرورة بحكم التخلي عن المحاولة الفيزيولوجية ، نجدها حرة ثانية في مؤلفات فرويد اللاحقة . والبعض من هذه الأفكار يُعتبر من العناصر الدائمة التي تخص الفرضيات النفسية التحليلية . أقسامٌ أخرى من التصميم الإجمالي (مثلاً ، شأن طريقة تصور سيكولوجية الظاهرات الفكرية) كانت أكثر إهمالاً في مؤلفات فرويد الأخرى ، بينما بعض الأفكار الموسعة هنا ، من الممكن أن تنضم الى مجموعة الفرضيات النفسية التحليلية .

نكتشف ضمن أعمـال فرويد ، في **تفسير الأحلام** ، التتمة المباشرة للتصميم الإجمالي ، لكن وصف طبيعة الجهاز النفسي الذي ورد في الفصل السابع من كتاب « ولادة علم النفس التحليلي » لا يطال ، على الأقل في نقطة واحدة ، الأفكار المذكورة في التصميم الإجمالي ، إذ لم يفسر فرويد تفسيراً كاملاً في « تفسير الأحلام » المركز الذي تستلمه الوظيفة الحواسية . (راجع في هذا الصدد « المكمّل الميتاسيكولوجي لعِلم الأحلام[1] ») . إن الفَرَضية المنسوبة الى الشكل التركيبي النفسي ، هي وحدهـا فقط ، منذ أن صيغت في « أنا و سا[2] » ، أفسحت المجال لحل هـذه المسألة . لكننا نرى مثل هذا التطوير وقد اتضح وبرز في **التصميم الاجمالي** ، وذلك

---

(١) Complément métapsychologique à la Science des rêves.

(٢) « أنا و سا » (Le Moi et le Ça) . (سا) أي مجموعة الانفعالات اللاواعية عند الانسان .

بفضل المفهوم المُبرهن الخاص بالفرضية المتعلقة بتنظيم الأنا « المُحاصَر بصورة دائمة » ، تلك الفَرَضية التي عاد اليها فرويد بعد مرحلة تناهز الثلاثين سنة .

يوم كان يكتب فرويد **التصميم الاجمالي** ، كان يهتم بالأخص بمسائل فيزيولوجيا الجهاز العصبي Neurophysiologie . وبعد فشل الفرضيات المنسوبة الى هذه المسائل ، تخلّى مؤقتاً عن دراسة مواضيع أخرى ، بالأخص كما ذكر ذلك فرويد في **التصميم الاجمالي** ، فيما يتعلق بالأنا التي ألحقها بزُمرة من الخلايا العصبية المحددة تحديداً واضحاً .

وفوراً بعد التصميم الاجمالي ، حين أخذ فرويد يهتم بالمسائل الأخرى لدى رجوعه الى الأعمال السريرية ، وضع فرويد الدراسة عن النيفروز (أي الاضطراب العصبي النفسي الواعي) في المرتبة الأولى ، وحقق اكتشافاً فاصلاً في خريف عام ١٨٩٥ ، يتعلق بحالات التمييز التي يجب توطيدها ضمن حالة النيفروز الوسواسية والهستيريا ، بين العوامل الوراثية [١] .

---

(١) وراثي génétique مصدر الكلمة اغريقي : جينوس genos (أي عنصر، جنس). علم الوراثة . أطلق مندل Mendel القوانين الأولى لهذا العلم ، عام ١٨٦٥ ، فدرس انتقال الطبائع التشريحية والسيتولوجية (Cytologique) أي المختصة ببحث الخلايا (قسم من علم الأحياء) والوظيفية المتعلقة بالأهل والبنين .

القِسمُ الأوّل

تصميمٌ عامّ

المدخـــل

في هذا التصميم الاجمالي ، حاولنا ادخال السيكولوجيا في إطار العلوم الطبيعية ، أي إظهار العمليات النفسية المتعاقبة كحالات محدّدة كميّاً من جزئيات مادية من الممكن تمييزها ، وذلك لجعلها مؤكدة وحاسمة .

يتضمن هذا المشروع فكرتين رئيسيتين :

١) ما يميّز نشاط السكينة ، هو من النوع الكمّي . إن الكمية (ك) خاضعة للقوانين العامة للحركة .

٢) إن الجزئيات المادية المذكورة هي الخلايا العصبية . ن ، و ك نَ N et Q n´ . (الخلايا العصبية والكمية) . إن تجارب من هـذا النوع هي الآن مألوفة .

المفهوم الاول الاساسي

مدلول الكمية

هذا المدلول ناتج بصورة مباشرة عن الملاحظات السريرية البائولوجية، بالأخص عن حالات « التصورات الانفعالية الزائدة التوتر» hyperintenses (شأن الهستيريا وحالة النيفروز الوسواس حيث يكون الطباع الكمي أكثر بروزاً مما هو لدى الأشخاص الطبيعيين) . إن عمليات متعاقبة ، شأن الإثارة والاستبدال والتحول والتفريغ ، التي ترتبط بهذه الاضطرابات ، تجعلنا ندرك بأن حالات إثارة الخلايا العصبية هي كميات متحركة ، مما أتاح لنا تعميم الوقائع التي تعرفنا عليها ، بهذا الشكل . انطلاقاً من هذه النقطة ، استطعنا وضع مبـدأ أساسي ، متعلق بنشاط الخلايا العصبية بالنسبة للكمية (ك) ، ونأمل أن ينير هذا المبدأ المسألة ، إذ يبدو بأنه يشمل مجموع الوظيفة الخاصة بالخلايا العصبية ، فندعوه مبدأ سكون الخلايا العصبية ؛ واستناداً الى ذلك ، تميل الخلايا العصبية نحو التخلّص من الكميات (ك) . وفي حـــال قبوله ، تتاح لنا إمكانية فهم بنية وتطور الخلايا العصبية ، ومهماتها أيضاً .

إن مبدأ السكون [1] يجعلنا ندرك أولاً تقسيم الخلايا العصبية الى فئتين : الفئة الحَرَكية والفئة المحسوسة ؛ هـذا التقسيم الذي يتصدى لاستقبال الكميات (ك نَ) وذلك بالتخلص منها . إن الحركة المنعكِسة تفسَّر هكذا : إنها وسيلة لتفريغ هذه الكميات ، ومبدأ السكون يقدم لنا السبب . وحين ننظر قليلاً الى الوراء ، نستطيع ربط جهاز الخلايا العصبية (وارث الحالة التهيجية الجِبْلية [2] العامة) بالسطح الخارجي القابل للاثارة من الجِبْلة ، هذا السطح الذي يقطعه عدد من الرباط الواسع (ذي ماهيّة غير قابلة للاثارة) . سيتمكن جهازُ الخلايا العصبية الأولية وقد اكتسب على هذا المنوال كمية معينة (ك نَ) بواسطة الطريقة المؤدية الى سَير الجهاز العضلي ، من تفريغ ذاته والتزام حـــالة اللاتهيُّج . إن العملية المتعاقبة للتفريغ ، تشكل المهمة الأولية لجهاز الخلايا العصبية .

هنا ، جاز نمو وتكوين مهمة ثانوية . في الواقع ، بين الأساليب المختلفة من التفريغ ، بعضها معضَّلة ومؤكدة لأنها تفترض توقفاً لحالات التهيج ، الهربُ مثلا . هنا ، أُقيم توازن بين كمية التهيج والمجهود الذي يتطلبه الهرب

---

(١) مبدأ السكون Le principe d'inertie أي المبدأ الذي يعتمد على الوضع التالي : أية نقطة مادية غير خاضعة لأية قوة ، إما تكون في حالة سكون وإما تكون منشطة بواسطـــة حركة مستقيمة منتظمة . (النقطة المـــادية أي الكتلة المركزة على نقطة هندسية) .

(٢) الجبلية Grotoplasmique : أي متعلقة بالجبلة أو بالمادة الحية في الخلية .

تجاه هذه الحالة الأخيرة ؛ نتيجة لذلك ، لن يكون مبدأ السكون مضطرباً في مثل هذه الحالة .

ولكن في البداية ، يكون مبدأ السكون مضطرباً بحكم ظروف أخرى .

بمقدار ما ينمو التعقيد الداخلي للأجهزة العضوية ، (أو الجسم) ، يتلقى جهاز الخلايا العصبية منشطات حواسية صادرة عن عناصر جسدية بحد ذاتها ، منشطات داخلية النمو تميل أيضاً نحو التفريغ الذاتي . إنها تُولد ضمن خلايا الجسم وتُحدِث الحاجات الكبرى : الجوع ، التنفس ، الجنسية .. لا يستطيع الجسم الافلات منها ، كما يفعل ذلك مع المنشطات الخارجية . وليس في وسعه استعمال كمياتها (ك) ، كي يتهرب منها . ولا تتوقف حالات التهيج إلا اذا تحققت شروط محددة تماماً ، في العالم الخارجي (مثلاً ، عند الحاجة الى الغذاء) لتنفيذ الفعل ، (القادر على تزويد هذه الشروط) ولكي يوصف بالنوعي ، لزم مجهود مستقل عن الكميات الداخلية النمو (ك نَ) ويكون إجمالاً أكبر منها ، ما دام الشخص خاضعاً لبعض الشروط التي يمكن تسميتها « بالحاجات الحياتية » . وبالنتيجة ، فإن جهاز الخلايا العصبية يجد نفسه مضطراً الى الاقلاع عن مبله الأصلي نحو حالة السكون (أي نحو انخفاض مستوى التوتر حتى الصفر). وعليه أن يتعلم كيف يتحمل الكمية المختزنة (كنَ) التي تكفي لتلبية متطلبات فعل نوعي . غير أنه ، وفقاً للطريقة التي يستعملها ، إن ذات الميل يعمد بهيئة معدلة المجهود ، للاحتفاظ بالكمية في مستوى منخفض بقدر المستطاع وتجنب أي ارتفاع ، أي لحفظ هذا المستوى في وضع دائم . وجميع

إنجازات جهاز الخلايا العصبية ، يجب أن يُنظر اليها إما من خلال زاوية المهمة الأولية وإمـا من خلال زاوية المهمة الثانوية التي تفرضها متطلبات الحياة [1] .

---

(١) الأفكار المذكورة هنا، ذكرها فرويد في مؤلفه بعنوان: «المصدران الاثنان للعمل العقلي» ونجد هذه الأفكار أيضاً في الفصل السابع من كتاب تفسير الأحلام، عام ١٩٠٠. انها مسألة توطيد التمييز ما بين الميل نحو تقليل الاشتداد التوتري الى صفر، وبين تعديل هذا الميل الذي يهدف الى الاحتفاظ بمستوى الاشتداد التوتري منخفضاً بقـدر المستطاع ، أي ما بين « مبدأ النيرفانا Nirnvaa و « مبدأ اللذة » .

المفهوم الثاني الاساسي

نظرية الخلايا العصبية

إن فكرة تنسيق « نظرية الكمية (ك نَ) مع معرفة الخلايا العصبية ، كما يجسدها حالياً مبحث الأنسجة الحيّة (Histologie) ، إنما تزوّد نظريتنا بنقطة ارتكاز ثانية . وفي هذه الاكتشافات الحديثة ، فإن النقطة الأساسية هي التالية : إن جهاز الخلايا العصبية يتضمن خلايا عصبية متميزة ولكن ذات بنية مماثلة ، وليست على اتصال إلا بواسطة ماهية غريبة . وتنتهي كل خلية بجانب الأخرى كما لو أنها على قِطع من نسيج غريب . وبعض التوصيلات تجد نفسها وهي معلنة مسبقاً بحكم تلقيها الاثارات عن طريق (الدانتريت) Dentrites ، وتُفرغها بواسطة محاور عصبية (Axones) ؛ وبالإضافة الى ذلك ، توجد شُعبٌ عديدة ذات قطر مختلف غاية الاختلاف .

بتنسيق طريقة إدراك الخلايا العصبية مع نظرية الكمية (ك نَ) ، جاز لنا أن نتصور وجود خلية عصبية « محاصرة » (نَ) ممثلة بكمية معينة (ك نَ)، ولكن من الممكن أن تكون في أوقات أخرى ، فارغة . وبتوضح

مبدأ السكون في فرضية التيار الصادر عن التفرعات الخلوية (appendics cellulaires) أو (دانتريت) وتتجه نحو المحاور العصبية . وكل خلية عصبية منعزلة ، تعتبر النموذج الأصلي للجهاز العصبي (نورونيك) في مجموعه مع تقسيمه الى فئتين من الخلايا العصبية ، بينما يكون المحور ، عضواً للتفريغ . وإنما المهمة الثانوية التي تفرض تخزيناً للكمية (ك نَ) تصبح ممكنة في حال افتراضنا لتدخّل حالات المقاومة التي تتصدى للتفريغ ؛ إن بنية الخلايا العصبية تسمح لنا بالاعتقاد بأن حالات المقاومة هذه إنما تحدث لدى نقاط التماس (بين الخلايا العصبية) التي تلعب هكذا دور الحواجز . إن فرضية « حواجز التماس » تبدو مثمرة في ميادين عدة .

حواجز التماس

إن التبرير الأول لهذه الفرضية ناتج عن الوضع التالي : بحكم حدوث الإرسال من خلال الجِبْلة الأولى (بروتوبلازما) غير المتميزة ، ولا يتم ذلك ، كما هو الأمر عادة داخل الخلايا العصبية ، بواسطة جبلة أولى متميزة ، وهي بلا شك مكيّفة بصورة أفضل مع حالة التوصيل . وبناء على ذلك ، نفترض وجود علاقة معينة بين التفاضل التمييزي وإمكانية التوصيل ، وربما سيتضح لنا بأن العملية المتعاقبة للتوصيل بذاته إنما تخلق التفاضل التمييزي في الجبلة الأولى وبعد ذلك ، إمكانية التوصيل الأفضل .

إن نظرية حواجز التماس تقدم حسنات أخرى أيضاً . إحدى الخاصيات الأساسية للنسيج العصبي هي « الذاكرة » أي باختصار ، إمكانية تلقي

التعديل الدائم ، بحكم عملية متعاقبة وحيدة ، منعزلة . ويوجد هنا تناقض مؤثر بالنسبة لطريقة رد الفعل الخاص بالمادة التي تخترقها ذبذبات متحركة كي ترجع بعد ذلك الى حالتها السابقة . وكل نظرية جديرة بالفائدة ، لزم أن تتضمن تفسيراً للذاكرة . ولكن ، كل واحد من هذه التفسيرات يصطدم بصعوبة : في الواقع ، من ناحية ، لزوم التأكيد بأنه بعد الإثارة تظل الخلايا العصبية دوماً مختلفة عن حالتها السابقة ، بينما ، من ناحية أخرى ، لا يمكننا بصورة عامة نكران كون حالات التهيج الجديدة موجودة في ذات الشروط من الاستقبال التي تخص الحالات السابقة . ويبدو إذن أن الخلايا العصبية هي في آن واحد متأثرة وغير متبدلة ، « حيادية » .

من الوهلة الأولى ، يبدو لنا من المستحيل تصوّر جهاز ذي سَير معقد لهذه الدرجة من التعقيد . وكي نتخلص من الورطة ، لزم تخصيص الإمكانية كي تكون معدّلة على الدوام بواسطة تهيج عند فئة معينة من الخلايا العصبية والحالة غير المتبدّلة – إمكانية استعدادية دائمة لاستقبال التهيجات الجديدة – عند فئة أخرى . ومن هنا نشأ التمييز الراسخ والشائع بين خلايا « الادراك الحواسي » و « خلايا الذكرى » تمييزاً لا يرتكز على أي شيء ولا يتكيف في أي مكان .

يمكن أن تنجو نظرية حواجز التماس من هذه الصعوبة بالطريقة التالية : توجد فئتان من الخلايا العصبية ، الفئة التي تخترقها كميات (ك نَ) كما لو أن حواجز التماس غير موجودة ، والتي بعد مرور حالة التهيج ، ترجع الى حالتها السابقة ؛ ثم الفئة التي تملك حواجزها الخاصة بالتماس ، تأثيراً عليها بحيث لا تسمح للكمية (ك نَ) إلا مروراً جزئياً أو صعباً . وهذه الفئة

الثانية من الخلايا العصبية من الممكن أن تتلقى تعديلاً ، وذلك ما يعطي بهذه الطريقة إمكانية لتصور الذاكرة [1] .

توجد إذن خلايا عصبية قابلة النفوذ ، صالحة للادراك الحواسي (التي لا تعترض أية مقاومة ولا تحتفظ بـأي شيء) وخلايا عصبية كتيمة [مقاوِمة وقابضة ذات كمية (ك نَ)] .. وتتعلق الذاكرة بهذه الخلايا الأخيرة وربما أيضاً العمليات المتعاقبة النفسية ، بعامة . وسأدعو من الآن فصاعداً الخلايا العصبية (ك) التي هي من الفئة الأولى والخلايا العصبية (و) التي هي من الفئة الثانية [2] .

ولتوضيح موضوع الخاصيات الأكثر تعميماً والمتعلقه بالذاكرة ، لزم علينا الآن عرض ما يجب معرفته فيما يخص الخلايا العصبية (و) . إن القياس المنطقي هو التالي : إن سَير التهيج يعدّل بصورة دائمة ، هـذه الخلايا العصبية . وبالتزامنا نظرية حواجز التماس ، نذهب الى القول بأن

---

(١) استخدم فرويد بعض هذه الأفكار فيما يتعدى مبدأ اللذة Au-delà des principe de Plaisir . أعلن بأنه التزم فيما يخص المركزة ، طريقة رؤية «التشريح الدماغي» ، استناداً الى التحليل الذي عرضه (دورر) Dorer (١٩٣٢) في صدد موقف فرويد بالنسبة لنظريات (ماينير) Meynert ، ومن المؤكد بأن فرويد ، وهو يكتب هذه العبارة ، كان يفكر بمـــاينير . ويظهر تأثيره في أماكن عدة من كتاب « التصميم الاجمالي » .

(٢) استناداً الى الشرح اللاحق ، نستطيع استنتاج خاصيات الفئتين من الخلايا العصبية وهي التالية : الخلايا العصبية (ك) هي « القابلة النفوذ » أي التي لا تتضمن أية مقاومة ، إنها تصلح لتخفيف المنشطات الحواسية الصادرة عن العالم الخارجي وتتضمن المادة السنجابية الخاصة بالمخ . والخلايا العصبية (و) هي قابضة ، تنقص المنشطات الحواسية الداخلية وتتقمص المادة السنجابية العليا الخاصة بالدماغ .

هذه الحواجز قد تلقت تغييراً مستديماً . غير أن التجربة السيكولوجية تعلمنا بأنه يوجد تدرب تدرجي مرتكز على التذكر ، فنستنتج بأن التغيير الذي يتم حدوثه يتكون من إيصال أفضل بواسطة حواجز التماس ، وهذه الحواجز التي أصبحت أقل قابلية للنفوذ وأكثر تشابهاً للحواجز المختصة بالنظام (ك) . فحالات حواجز التماس هذه ، نسميها درجة « التسهيل »[1] Frayage [بالانكليزية facilitation ، بالألمانية باهنونغ Bahnung] . وبهذا نقول بأن **الذاكرة مجسدة بواسطة التسهيلات الموجودة ما بين الخلايا العصبية (ك) .**

ولنفترض أن حواجز التماس تقدم جميعاً تسهيلات رائعة أو أيضاً ، إنه الشيء نفسه ، لنفترض أنها تعترض جميعاً بواسطة مقاومة متساوية ، بهذا ، ستظهر خاصيات الذاكرة بأفضل طريقة ممكنة . إن الذاكرة في الواقع ، هي بالطبع إحدى القوى المحدّدة والموجّهة بالنسبة للسبيل الذي تسلكه الإثارة ، وإذا كانت التسهيلات هي ذاتها في أي مكان ، يصبح الأمر مستحيلاً لشرح الأفضلية المنسوبة الى هذا السبيل أو ذاك . وبهذا ، من الأصح القول بأن الذاكرة هي متمثلة بواسطة فروق التسهيلات الموجودة ما بين الخلايا العصبية (ك) .

ولكن ، بأي شيء تتعلق التسهيلات في هذه الخلايا العصبية ؟ إن التجربة السيكولوجية تبين بأن الذاكرة (أي القوة الباقية من حادث

---

(١) التسهيل أي جعل الشيء أكثر سهولة أو أكثر توافقاً مع سواه facilitation .
(قاموس ستاندارد - دائرة معارف كولبير)

طارىء) تتعلق بعامل هو شدة الانطباع الذي يتلقاه ، وتتعلق أيضاً بالتكرار المتواتر نوعاً مـا ، لهذه الحالة الأخيرة . أو أيضاً ، كي نستعمل طريقتنـا في النظر الى الأمور ، إن التسهيل يتعلق بالكمية (ك نَ) التي تخترق خلية عصبية خلال العملية المتعاقبة للاثارة وأيضاً بصدد هـذه الحالات المتكررة لهذه العمليات المتعاقبة . وهكذا ، يتضح لنا بأن الكمية (ك نَ) تشكل العامل الفعال ولكن من الممكن أن تُستبدل بالكمية بالاضافة الى التسهيل الذي ينتج عن ذلك .

إننا نفكر ، تقريباً بالرغم عنا ، بالمجهود الأولي لجهاز الخلايا العصبية ، التي تصمد وتبقى خلال جميع التغييرات ، لتجنب الابهاظ في الزيادة بالنسبة للكمية (ك نَ) أو لتنقيص هذه الكمية بقدر الإمكان . وتحت ضغط متطلبات الحياة ، فإن جهاز الخلايا العصبية يرى نفسه مضطراً الى تشكيل الاحتياط من الكمية (ك نَ) . ولتحقيق ذلك ، لزم عليه زيادة عدد الخلايا العصبية ووجب أن تكون تلك غير قابلة للنفوذ (Imperméables) . ولكن جهاز الخلايا العصبية يتجنب ذلك ، بمقدار معين على الأقل ، كي لا يكون ممتلئاً بواسطة الكمية (ك نَ) ، أي كي لا يكون مُحاصراً . ولذا يؤسس تسهيلات ، وهكذا يتضح لنا بأن **التسهيلات تخدم الوظيفة الأولية** .

إن الحاجة الى تخصيص مكان للذاكرة في نظرية حواجز التماس ، إنما تجتذب شيئاً آخر ، أيضاً . وبوجه عام ، يمكن الظن تخميناً بأن كل خلية عصبية (ك) تستخدم وسائل عديدة من الاتصالات مـع خلايا عصبية أخرى ، أي عدة حواجز من التماس . وبذلك الأمر تتعلق الإمكانية للاثارة لاختيار السبيل ، ذاك ما هو محدّد بواسطة التسهيل . ومن الواضح أن

شروط التسهيل لكل حاجز خـاص بالتماسّ ، يجب أن تكون مستقلة عن سواها . وذلك في نفس الخلية العصبية (ك)، وإلا لن يكون اختيار السبيل المستعار ممكناً ، كذلك الأمر بشأن أي دافع ما . إننا نستخلص نتيجة سالبة بالنسبة لطبيعة شروط التسهيل . وإذا تخيلنا خلية عصبية ممتلئة بكمية (ك نَ) ، أي مثقلة ، لا يسعنا إلا أن نتصور هذه الكمية (ك) وهي موزعة بشكل منتظم في جميع مناطق الخليـة العصبية ، ومتضمنة حواجز التماس ، من ناحية أخرى – جاز لنا الافتراض بأنه في حالة الكمية (ك نَ) التي تنقضي ، لن تسلك إلا سبيلاً واحداً خاصاً وهي تجتاز الخلية العصبية ؛ بهذه الطريقة ، إن الكمية (ك نَ) هذه ، لن تفعل فعلها إلا على أحد حواجز التماس ، والتي بعد ذلك ، تحتفظ بالتسهيل الذي تم تحقيقه بهذا الشكل . ونتيجة لذلك ، لا يمكن تشكيل أي تسهيل على حالة حصار محتجز بصورة خفية [1] ما دام الأمر لا يولد أي فرق من التسهيل داخل حواجز التماس التي تخص نفس الخليـة العصبية .

وما عدا ذلك ، بقي أن نعرف **من أي شيء يتألف** هذا التسهيل . يجوز لنا أولاً الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بامتصاص لكمية (ك نَ) بواسطة حواجز التماس . وربما سنوضح هذه المسألة ، فيما بعـد . إن الكمية (ك نَ) التي خلفت وراءها تسهيلاً ، تتلقى بلا شك تفريغاً ، وذلك بالضبط بسبب هـذا التسهيل الذي يزيد في قابلية النفوذ .

---

(١) محتجز Rétention ، أي المرحلة التي حصل خلالها تذكير ، فبقيت هذه الذكرى مختزنة بشكل مستتر . (تفسير سيكولوجي) .

ولا شيء يتيح لنا الافتراض بأن التسهيل الباقي بعد مرور الكمية (ك نَ) هو بالضرورة كبير بمقدار كبره عند حصول هذا الاجتياز . وربما لن يبقى سوى الجزء العُشري بشكل تسهيل مستديم . ثم ، لا ندري كيف نؤكد بدقة الأمرَ التالي : هل التأثير الناتج عن المرور بالنسبة لمرة واحدة من الكمية (ك نَ) المعطاة ، يساوي تأثير المرور لثلاث مرات من هذه الكمية بالذات . إن تطبيق النظرية على الحوادث النفسية إنما يفسح لنا المجال لتوضيح هذه المسائل وتفسيرها .

وجهة نظر بيولوجية [1]

هكذا نقرُّ بوجود جهازين للخلايا العصبية (ك) و (و) ، حيث يتكوّن الأول من عناصر قابلة النفوذ ويتكوّن الثاني من عناصر كتيمة . بهذه الطريقة ، يتم تفسير خاصية جهاز الخلايا العصبية ، فيما يتعلق بامكانيته في الاحتفاظ مع لزوم الحالة القابلة للتأثر . كل كَسْب نفسي يتضمن تنظيماً للجهاز (و) بواسطة الرفع الجزئي [2] والمقاومة المُحدَّدة موضعياً ضمن حواجز التماسّ التي تميّز (و) عن (ك) . وبقدر ما يتم إنجاز هذا التنظيم ، بقدر ما تصل حالة القابلية للتأثر الخاصة بجهاز الخلايا العصبية ، إلى حدودها .

كل شخص تهمه الفَرَضيات العلمية لا يعتبرها اعتباراً جدّياً إلا

---

(١) بيولوجيك : أحيائي (صفة) والاسم هو بيولوجيا أي علم الأحياء .
مصدر الكلمة اغريقي : بيوس أي حياة ، لوغوس أي علم . علم الحياة .
(Bios , Logos) وتوجد فروع عدة : البيولوجيا الحيوانية ، البيولوجيا الخلوية والبيولوجيا النباتية .

(٢) الرفع الجزئي levée partielle

إذا توافقتْ بطرائق مختلفة مع الذي نعرفه سابقاً وعندما يحصل هكذا تخفيفٌ بالنسبة لميزة اعتباطية خاصة بتعمير متعلق بهذه الغاية (ad hoc). ويجوز الاعتراض فيما يخص نظريتنا لحواجز التماسّ ، إذْ تجعلنا نقرّ بوجود فئتين من الخلايا العصبية بحيث يختلف سَير عمل كل فئة عن الأخرى ، اختلافاً كاملاً . غير أنه ، لا شيء يمنع ، كتبرير مؤقت هـذا التمييز من الناحية المورفولوجية [1] (أي الهيستولوجية [2]) على الأقل ، فمثل هذا الافتراض لا يرتكز على شيء .

على أي شيء إذن ، لزم تأسيس هذا التقسيم إلى فئتين ؟ حسناً : إن أمكن ، على التطور البيولوجي لجهاز الخلايا العصبية الذي ، شأن سواه من الأجهزة — على حد قول الطبيعيين [3] — يتم إنجازُه بصورة تدريجية . نود أن نعرف إذا كانت الفئتان من الخلايا العصبية تتضمنان معنى بيولوجياً مختلفـاً وفي هذه الحـــالة ، نود أن نعرف البُنيويات (mècanismes) التي سبّبت ظهور الخاصيات المتناقضة التي تشبـه

---

(١) تشكلي: متعلق ببحث التشكل Morphologique للبنيات في الكائنات (الحية) . مصدر الكلمة اغريقي : (مورفي: شكل، لوغوس: علم) (morphê , logos)

(٢) Histologique (صفـــة) هيستولوجي (Histologie) (إسم) أي مبحث الأنسجة الحية . مصدر الكلمة أغريقي : (هيستوس : نسيج ، لوغوس : علم) (histos , logos) أو دراسة وصفية للأنسجة التي تتكون منها الكائنات الحيـــة .

(٣) عالم بالطبيعيات Naturaliste أو الشخص الذي يهتم بدراسة النباتات والمعادن والحيوانات : كان أرسطو وبلين وبوفون من كبار العلماء بالطبيعيات .

حـالة القابلية للنفوذ والحالة الكتيمة . إن أفضل حلّ يكمن بالطبع في رؤيـة البنيوية المطلوبة وهي تظهر فجأة من تلقـــاء ذاتها بحكم دورها البيولوجي البـــدائي الذي تم تنفيذه . [بواسطة فئتـين من الخلايا العصبية] . إن جواباً واحداً لكافٍ بالنسبة لهذين السؤالين .

وجدير بالذكر أنه قد أُنيطت منـــذ البداية مهمتان بجهاز الخلايا العصبية : تلقّي المُنشطات الحواسية من الخارج وتأمين تفريغ حالات التهيُّج داخلية النمو Endogènes . من هذه المهمـة الأخيرة كما نعلم ، قد وُلِدتْ تحت ضغط الاحتياجات الحياتية ، حاجـةُ ملاحقة التطور البيولوجي . ذاك ما يؤدي بنا الى الافتراض بأن الجهازين (ك) و (و) قد تكفّلا أحد هـذه الالتزامات الأولية . ويتكوّن الجهاز (ك) من زمرة من الخلايا العصبية التي تتلقى المنشطات الحسية الخارجية التكوّن Exogènes ، بينما يحتوي الجهاز (و) على خـــلايا عصبية تلتقط حالات التهيج الداخلية النمو . فإذا كان الأمر كذلك ، **لن نضطر** الى **الاختراع** ، ولكن فقط الى **اكتشاف** (ك) و (و) . ولم يبق سوى مطابقتهما مع الوقائع المعروفة سابقاً . ومن جهة أخرى ، فإن علم التشريح يفيدنا علماً بوجود جهاز للخلايا العصبية (المادة السنجابية الخاصة بالمخ) والذي هو وحده على اتصال مع العالم الخارجي ومع جهـاز موجود في الناحية الفوقية ، أي المادة السنجابية للدماغ التي لا تملك أي اتصـال خارجي [1] مباشر ولكن يتعلق بها أمر تطور جهـاز الخلايا العصبية

---

(١) خارجي : (بريفريك) Périphérique أي واقع بعيداً عن المركز العصبي .

والمهمات النفسية . إن الدماغ الأولي يتطابق ، نوعاً ما ، مع طريقتنا في تقييم الخاصيات التي ننسبها الى الجهاز (و) ، شرط الاقرار بوجود بعض السبل المستقلة عن (ك) بحيث تقود مباشرةً من الدماغ الى داخل الجسم . إن العلماء بالتشريح يجهلون النشأة والأهمية البيولوجية الأصلية للدماغ الأولي Primaire ؛ استناداً الى نظريتنا ، لن يكون ذلك سوى 'غدّة'[1] العصب الودّي . هنا بالذات ستفسح لنـا المجال المقومات الحقيقية لتبرير قيمة آرائنا .

لنكتفي مؤقتاً بالاعتقاد بأن الجهاز (ك) يتطابق مع المادة السنجابية للدماغ . إن ملاحظاتي البيولوجية السابقة تجعلنا ندرك بأن الجهاز (ك) بالضبط ، خاضع لتطور لاحق ، بفضل تكاثر خلايـاه العصبية وتكاثف الكمية . يتبين لنا كم هو مفيد في حال كون (و) مكوناً من خلايـا عصبية كتيمة ، إذ من غير ذلك ، سيكون من المحال الاجابة عن متطلبات عمل نوعي . ولكن بأية طريقة استطاع الجهاز (و) اكتساب هـذه الكتامة ؟ على كل حال ، إن الجهاز (ك) يملك هو أيضاً ، حواجز التماس ، ولكن اذا كانت لا تنفع شيئاً ، لماذا تعمل إذن حواجز التماس التي تخص الجهاز (و) ؟ إن الإقرار بوجود فرق أصلي بين قيمة حواجز التماس التي تخص (ك) والتي تخص (و) ، يعني التزام رأي مشكوك فيه اعتباطياً . وللمرة الثانية ، مع اننا نستطيع الاعتماد على أفكار داروين المنسوبة الى

---

(١) غدة مصدر الكلمة اغريقي : غانغليون Ganglion أي ورم كيسي على مسار العصب ويحتوي على المادة السنجابية .

الحاجة ، وبتلك الوسيلة ، الى البقـاء الصامد (بعد وفاة الغير) للخلايا العصبية الكتيمة .

انحرافٌ آخر يبدو لنا أكثر نفعاً وأقل إدعاءً . جدير بالذكر أن حواجز التماس – وحق التي تخص الخلايا العصبية (نَ) – ينتهي بها الأمر الى الخضوع للتسهيل ، ويُسمح لها بالحصول على الكمية (ك نَ) وبقدر ما تكون مهمةً كمية (ك نَ) المستعملة أثنـاء مرور الاثارة ، بقدر ما يكون التسهيل كبيراً ، وبقدر ما تكون خاصيات الخلايا العصبية (ك) أقرب . وينتج عن ذلك بأن الفرق لا ينسب الى الخلايا العصبية ولكن الى الكميات التي يتعلق الأمر بها . بهذا ، إن المقاومة الصادرة عن حواجز التماس والتي تعترض الكميات التي تجتاز الخلايا العصبية ، نشك بها كأمر يمكن إهماله . بالعكس ، إن الخلايا العصبية (نَ) لم تصبها إلا كميات تخص ذات مرتبة من الكِبَر التي تخص المقاومة . وإذا كان هكذا الحال ، فالخلية العصبية (ك) تصبح كتيمة ، والخلية (نَ) قابلة للنفوذ ، في حال تمكننا من تحقيق تبـادل تمركزاتها وارتباطاتها ؛ لكنها تحتفظ بخاصياتها المميزة ، لأن البعض منها مرتبطة ، الخلايا (ك) ، بالمنتهى العصبي[1] فقط ، والبعض الآخر ، الخلايا العصبية (نَ) ، مرتبطة فقط بداخل الجسم . هكذا ، إن الفرق بالطبيعة قد استُبدل بتمييز للمحيط الذي نُسبت اليه بشكل محتوم .

لنرى الآن اذا كنا على صواب في الاعتقاد بأن كميات الاثارة الصادرة

---

(١) المنتهى العصبي : بريفيري Périphérie أي المناطق التي تنتهي عندها الأعصاب .

عن المنتهى العصبي للجسم ، والتي تصيب الخلايا العصبية هي ذات درجة أكثر ارتفاعاً من الاثارة الصادرة عن المنتهى العصبي الداخلي . ويبدو بأن بعض الوقائع تؤكد ذلك .

من المؤكد بأن العالم الخارجي هو مصدر أكبر كميات من الطاقة ، وبالطبع يفيدنا علم الفيزياء عِلماً بأنه مكوّن من كتل متحركة بقدرة فائقة ، وهي التي تنقل حركتها . إن الجهاز (ك) الذي يتجه نحو الخارج ، لديه مهمة طرح خارجاً بالسرعة الممكنة ، الكميات (ك نَ) وهي تقتحم الخلايا العصبية ؛ ولكن مهما حدث ، إن هذا الجهاز يظل خاضعاً للكميات (ك) البالغة الأهمية .

كما نعلم ، ان الجهاز (و) يظل بلا احتكاك بالعالم الخارجي . لا يتلقى كميات (ك) إلا من الخلايا العصبية (نَ) من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، من عناصر خَلَوية تخص داخل الجسم . يبقى الآن أن نبرهن بأن كميات الإثارة هذه هي بوجه الاحتمال مرتفعة قليلاً . ربما ، يبدو الأمر مذهلاً ، للوهلة الأولى ، حين ننسب قسراً الى الخلايا العصبية (نَ) مصدرين من المنشطات المختلفة مثل (ك) والخلايا العصبية التي تخص داخل الجسم ؛ ولكن مبحث الأنسجة الحية الحديث (أي هيستولوجي) الخاص بجهاز الخلايا العصبية ، يقدم لنا مساعدة حاسمة ، وذلك عندما يبين لنـــا بأن نهايات وارتباطات الخلايا العصبية تملك بنية من نفس النموذج وبأن الخلايا العصبية تنتهي بنفس الطريقة التي تخص العناصر الجسدية . ويلتج عن ذلك ، بأنه لزم بوجـه الاحتمال ، على العملية

المتعاقبة أن تكون في كلتا الحالتين ، من نفس النموذج . إذن ، نستطيع أن نتوقع بأن تكون الكميات متشابهة عند النهايات العصبية وعند المجاري الناقلة الواقعة بين الخلايا Intercellulaire ، من الممكن أيضاً أن تخص الاثارات الداخلية النمو درجة من مقدار الواقع بين الخلايا (البيخلوي) . إن الفرصة سانحة هنا ، للمرة الثانية ، كي نختبر نظريتنا .

مسألة الكمية

(Le probème de la quantité)

أجهل كل مـا يتعلق بالمقدار المطلق للمُنشطات البَيْخلوية ، ولكن يجوز لي الاعتقاد بأنه ضعيف نسبياً ومن ذات الدرجة التي تخص مقاومة حواجز التماس . اذا كان الأمر هكذا ، فكل شيء سيتوضح . إن الفَرَضية التي أعرضها تؤكد التشابه الأساسي للخلايا العصبية (ك) و (نَ) ، بينما تبين وتفسر من الناحية البيولوجية ، الفرق الموجود بينهـا بالنسبة الى القابلية للنفوذ .

في غياب البراهين ، أصبح الأمر مهماً من حيث الأخذ بعين الاعتبار، انطلاقاً من هـذه الفَرَضية ، بعض وجهات النظر وبعض الامكانيات . لنبدأ بالتساؤل ، في حال اكتساب فكرة صحيحة عن أهمية الكميات (ك) في العالم الخارجي ، حول المَيْل البدئي لجهاز الخلايا العصبية نحو الاحتفاظ بالكمية (ك نَ) عند درجة الصفر (مـا دام يبحث دائماً عن تفريغ عاجل) ، اذا لم يؤدِ وظيفته أصلاً ، في العملية المتعاقبة الخاصة باستقبال المنشطات الحواسية . ونلاحظ بالطبع بأن الخلايا العصبية (ك) لا تنتهي بحرية حق المنتهى العصبي ولكن ضمن البنيات الخلوية . فهـذه الأخيرة

وليست الخلايا العصبية (ك) ، تتلقى المنشطات الخارجية المنشأ . إن « مجموع النهايات العصبية » (ونستعمل هذا التعبير بالمعنى الأكثر شمولاً) قادر على منع الكميات الخارجية المنشأ (إكزوجين) من التأثير على (ك) وهي في تمام قوتها ، فليلعب هكذا دور الحواجز تجاه بعض الكميات (ك) ولا تسمح بالمرور إلا **لأجزاء عُشرية** Fractions من الكميات الخارجية المنشأ .

ذلك كله يتوافق مع الواقع التالي : إن النوع الآخر من الانتهاء العصبي – النوع الحر ، المجرد من أي عضو طَرَفي – هو من بُعد الأكثر استعمالاً ، عند المنتهى العصبي **الداخلي** للجسم . إن الحاجز الذي يعترض الكميات (ك) ليس هنا ضرورياً ، ربما لأن الكميات التي يلزم تلقيها (ك نَ) لا تتطلب توصيلها الى المستوى البَيْخلوي ، إذ هي أصلاً ، عند هذا المستوى .

ما دمنا نستطيع أن نحسب الكميات (ك) التي تلقتها نهايات الخلايا العصبية (ك) ، ربما سنقدر أيضاً على تكوين فكرة عن مقادير الكِبَر التي تنساب بين الخلايا العصبية (نَ) والتي لزم أن تكون من ذات المرتبة التي تخص حالات المقاومة لحواجز التماس .

بالإضافة الى ذلك ، إننا نشك في وجود مَيْل محدَّد ربما لأن جهاز الخلايا العصبية مكون من أجهزة **عديدة** : ميل متزايد على الدوام للاحتفاظ بعيداً عن الخلايا العصبية ، بكمية (ك نَ) . هكذا ، فإن بنية جهاز الخلايا العصبية تصلح للاحتفاظ ، بعيداً عن الخلايا العصبية ، بكمية (ك نَ) ، بينما تنحصر وظيفتها في تفريغها .

الألم

كل تَعضية [1] من نوع بيولوجي تعرف حدود عملها ، وتتوقف عن العمل عند اجتياز هذه الحدود . ويتبين ذلك بواسطة الظاهرات الحسية التي تلامس الباتولوجيا [2] وتزودنا بالنماذج الأصلية الطبيعيـــة للوقائع الباتولوجية . ويتعلق الأمر بجهاز الخلايا العصبية المؤسس بطريقة حيث الكميات الخارجية (ك) هي محفوظة خارج الجهاز (و) وحق ، أكثر من ذلك ، خارج الجهاز (ك) . هذا الوضع للأشياء يُفسح له المجال بواسطة حواجز النهايات العصبية وبحكم وضع الجهاز (و) الذي ليس على اتصال بالعالم الخارجي إلا بطريقة غير مباشرة . هل توجد ظـاهرة حسية قادرة على التوافق مع فشل هذه التعضية ؟ حسب اعتقادي ، نعم : الألم .

---

(١) تعضية Organisation أي طريقة محددة تخص الأجزاء التي تشكل الكائن الحي وموضوعة بتنظيم وذلك للقيام بوظائف معينة ، مثلا : تعضية الجسم البشري .

(٢) باتولوجيا أي علم أسباب الأمراض وأعراضها Pathologie . مصدر الكلمة اغريقي: باتوس : ألم ، لوغوس : علم .

كل ما نعرفه عن الألم ، يؤكد هذه الفرضية . إن جهاز الخلايا العصبية يميل ، بالطريقة الأشد بروزاً ، الى التهرب من الألم . ونرى في رد الفعل هذا ، إبرازاً لميله الأولي نحو تجنب كل تزايد في الضغط الكمي (ك نَ) . نستنتج بأن الألم مكوّن من **انقطاع لكميات كبيرة (ك) في الجهاز (نَ)** . بهذا ، إن المَيْلين لا يشكلان سوى الميل الواحد فقط والوحيد .

إن الألم يسبب الاهتزاز للجهاز (ك) والجهاز (و) ؛ إن توصيله لا يصطدم بأي حاجز ما . نلاحظ بأنه الأكثر استبداداً من بين العمليات المتعاقبة . ويبدو بأن الخلايا العصبية (نَ) قابلة للنفوذ بالنسبة له . ينتج عن ذلك بأن الكميات من النوع المرتفع نسبياً ، لزم عليها التصرف عند هذه الحالة .

إن الألم ناتج من ناحية ، عن تزايد في الكمية ؛ كل الاثارات الحواسية (حق التي تصيب الأعضاء الحواسية الأكثر ارتفاعاً) تميل نحو التحول الى ألم عندما تزداد قوة المنشطات الحسية . بالتأكيد ، إن الأمر متعلق بلا منازعة فيه ، عند هذه الحالة ، بالفشل . ومن ناحية أخرى ، من الممكن أن يحدث الألم فجأة في الموضع حيث المنشطات الخارجية هي ضعيفة ، وذلك لأنه مشترك بانتظام مع انفصام بالاستمرار . أعني بذلك أن الألم يتولد عندما تؤثر كمية معينة (ك) مباشرة ، على أطراف الخلايا العصبية (و) ولا يتم ذلك باجتياز « جهاز النهايات العصبية » . بهذا ، يتميز الألم بانقطاع الكميات المفرطة (ك) في (و) و (نَ) أعني بالكميات (ك) أي من درجة أكثر ارتفاعاً من المنشطات الحسية (و) .

إننا ندرك بسهولة لأي سبب يجتاز الألم كل سبل التسهيل . على ضوء نظريتنا ، إن الكمية (ك) تولِّد تسهيلاً ، ومن المؤكد بأن الألم يترك وراءه تسهيلات مستديمة لدى (نَ) – على طريقة الشعور العاطفي المفاجيء . من الممكن أن تلغي هذه التسهيلات بصورة تامة ، مقاومة حواجز التماس ، وتؤسس مجرىً للتوصيل شبيه بالمجرى الخاص بالجهاز (ك) .

مسألة النوعية

حق هذه الصفحة ، لم نذكر البتة الأمر التالي : يجب على كل نظرية سيكولوجية ليس فقط الخضوع لمتطلبات العلوم الطبيعية ولكن يجب الخضوع أيضاً لالتزام قاهر آخر . من واجبها التفسير لنا كل ما يفيدنا إدراكاً بطريقة ملغزة للغاية « ضميرنا الواعي » Conscient ولكن ، ما دام هذا الضمير الواعي يجهل كل ما التزمناه حتى الآن – الكميات ، كذلك الخلايا العصبية – فيستحسن أن تفسّر نظريتنا هذا الجهل بالذات .

إن الفرضية التي قادتنا حتى هذه النقطة من البحث ، ستصبح الآن واضحة . لقد عالجنا العمليات النفسية المتعاقبة كشيء ما ، من الممكن أن يُعفي نفسه الوجدان الواعي من التعرف اليه ، كشيء مستقل عنه . إننا نتوقع أن نجد بعض افتراضاتنا الأولية [1] Postulats غير مؤكدة بواسطة الوجدان الواعي . ومع ذلك ، لا يجب أن يدفعنا هذا الواقع نحو اليأس ،

---

(١) الافتراض الأولي : بوستولا Postulat . مصدر الكلمة لاتيني : بوستولاتوم ، أي مطالبة . أي مبدأ أولي غير مبرهن أو لم يبرهن ، إنما قبوله ضروري لتأسيس برهنة ما ، مثلاً : الافتراض الأولي لاقليدس (بوستولا اقليدس) . ويقال أيضاً بالأجنبية بوستولاتوم Postulatum .

ذلك لأننـــا نعتبر بأن الوجدان الواعي يزودنا بمعلومات عن العمليات المتعاقبة الخاصة بالخلايا العصبية ، ليست تامة وليست أكيدة ؛ إن مجموع هـذه العمليات المتعاقبة يجب اعتباره في البداية كمجموع لا واعٍ ويجب الاستدلال [1] عنها بواسطة سواها من الظاهرات الطبيعية الحسية .

لكننا نرى أنفسنا ملزمين على وضع محتوى الوجدان بـين العمليات المتعاقبة المختصة بالكمية (نَ) . إن الحالة النوعية تزودنا «بالنوعيات»: أحاسيس متنوعة جداً «فروق» ، وهذه الحالات الأخيرة تتعلق بالعلاقات مع الخارج ، وبين هـذه الحالات توجد مجموعات ، محاكاة ، الخ ... ولكن لا نكتشف أي شيء من النوع الكمّي . يجب دراسة هذه المسائل بعناية فائقة ، ولكننا لا نستطيع هنا إلا تقديم وصف تقريبي .

أين تولد النوعيات ؟ ليس في العالم الخارجي ما دام – استناداً الى المعطيات العلمية ، حيث لزم على السيكولوجيا هي أيضاً الخضوع – لا يوجد سوى كتلٍ متحركة ولا شيء سواها . هل أنا في صدد الجهاز (ك) ؟ ذلك ما يتوافق مع الأمر التالي: إن النوعيات مرتبطة بالادراك الحسي، لكن دلائل النفي التي نعرضها ، بصواب ، لوضع الوجدان في المستوى الأعلى من جهاز الخلايا العصبية ، إنما تناقض هـذا الافتراض ، عند الجهاز (نَ) ؟ لكن اعتراضاً مهماً يجابه ذلك . عند الادراك الحسي ، يتصرف الجهازان (ك) و (و) بصورة منسجمة ، لكن ظاهرة نفسية واحدة تتولد وذلك فقط وبلا شك عند الجهـاز (و) – توالد أو تذكُّر (عودة الى الذكرى) – وهذه العملية المتعاقبة هي بشكل عام ،

---

(١) من استدل : أقام الدليل بالاستخلاص من دليل أولي .

مجرّدة من النوعية . إن التذكر لا يجلب بعامة أي شيء مما يتميز بوجه خاص النوعية المدركة حسياً . لهذا السبب نحتاج الى الشجاعة للاقرار بوجود جهاز ثالث للخلايا العصبية بحيث يمكن تسميته « الخلايا العصبية الحواسية » « neurones perceptifs » التي تتهيج كغيرها أثناء الادراك الحسي ، فهي ليست كذلك أثناء التوالد وحيث تقدم حالات التهيج النوعيات المختلفة : أي الأحاسيس الوجدانية الواعية [1] .

إننا نكتشف ، ونحن نؤكد بأن الوجدان الواعي لا يقدم سوى النوعيات بينما العلوم الطبيعية لا تقرّ إلا بالكميات ، على طريقة القاعدة الثلاثية ، طباعاً مميزاً للخلايا العصبية الحواسية . بينما في الواقع ، يهتم هذا العِلم بإسناد جميع **نوعيات** أحاسيسنا الى **الكميات** الخارجية ، فبنية جهاز الخلايا العصبية يدفعنا نحو الشك بالأمر التالي : إن مهمة هذا الجهاز هي تحويل **الكمية** الخارجية الى **نوعية** . هنا أيضاً ، إن الميل البدئي للتخلص من الكميات ، يبدو وقد انتصر . إن النهايات العصبية التي تشكل حاجزاً لا تسمح بالتأثير على الجهاز (ك) إلا الجزء العُشري من الكميات (ك نَ) لخلية عصبية على أخرى ، بينما في الوقت ذاته

---

(١) إن دور الخلايا العصبية الحواسية وعلاقاتها مع الخلايا العصبية (ك) و (ن) مذكور مرة ثانية في الرسالة ٣٩ بتاريخ ١ - ١ - ١٨٩٦ . يقول فرويد : « اني أدخل الآن بين الخلايا العصبية (ك) و(ن) الخلايا العصبية للادراك الحسي، بطريقة أن الجهاز (ك) ينقل نوعيته الى(س) وأن الجهاز (س) لا ينقل أية نوعية أو أية كمية الى الجهاز(ن) ولا يقوم سوى بتهييجها ، أي أنه يشير الى المجرى الذي تتبعه لزاماً الطاقة النفسية الحرة .

يضمن الجهاز (ك) جملةً [1] Grosso modo تفريغَ الكمية . يكون الجهاز (نَ) مزوداً سابقاً باحتياجات ضد الكميات المتفوقة ولا علاقة له إلا بكِبَر ببخلوية . ويمكننا الافتراض بالتالي ، بأن الجهاز (و) (W) [2] قد تحرك بواسطة كميات ما تزال في حالة أضعف . بهذا ، ربما يظهر الطباع المميِّز للنوعية (أي الاحساس الواعي) هناك حيث أصبحت الكميات منخفضة بقدر المستطاع . لا يمكن أن تلغى بكاملها ، إذ يجب تصور هذه الخلايا العصبية الحواسية كخلايا محاصَرة هي أيضاً ، من كميات (ك نَ) بحيث تحاول التخلص منها .

لكننا نصطدم هنا بصعوبة تبدو لنا ظاهرياً رائعة . لقد رأينا بأن قابلية النفوذ تتعلق بفعالية الكميات (ك نَ) ، بينما تكون الخلايا العصبية (نَ) سابقاً ، كتيمة . من المعلوم أن الكمية (ك نَ) المذكورة ، هي الأضعف ، فلزم على الخلايا العصبية الحواسية أن تكون أكثر لا اختراقية أيضاً . غير أننا لا نستطيع أن ننسب مثل هذا الطباع الى وسائل نقل الوجدان . إن قابلية الانتقال الخاصة بمحتوياتها ، وتلاشي الحالة الواعية ، والتنظيم التوفيقي السهل للنوعيات المدرَكة حسياً على حين غرة ، كل هذا لا يمكن أن ينتج إلا عن قابلية النفوذ الكاملة الخاصة بالخلايا العصبية للادراك الحسي ، متخالفةً مع العودة الكاملة الى الحالة

---

(١) ورد المصطلح هكذا باللغة اللاتينية (غروسو مودو) Grosso Modo (ومعناه الحرفي بالمعنى اللاتيني: بطريقة غليظة). ومعناه في النص: جملة ، من غير التدخل في التفاصيل. En Gros .

(٢) (و) أو (W) يعني بالألمانية (وهرنهمونغ) أي الادراك الحسي . Wnignific Wahrnehmung « perception » .

السابقة [1] Restituo in integrum . إن الخلايا العصبية الحواسية تتصرف كأعضاء الادراك الحسي ولا ندري كيف نحدد وضع الذاكرة . هنا إذن ، لا ينبثق قابلية النفوذ ولا التسهيل التام ، من الكميات . إذن ، من أين تنشأ هذه الحالات ؟

لا أرى إلا وسيلة انفراج واحدة بحيث تفسح لنا المجال لإعادة النظر في نظرياتنا الأساسية المنسوبة الى مرور الكمية (ك نَ) . حتى الآن ، لم أعتبر هذا الانسياب إلا كتحول انتقالي للكمية (ك نَ) الخاصة بخلية عصبية الى سواها ، ولكن يجب أن يكون مزوداً بخاصية أخرى أيضاً ، بخاصية زمنية . إن ميكانيكا الفيزيائيين تنسب هذه الخاصية الزمنية بذاتها الى حركة عدد الجزئيات الإجمالي Manes في العالم الخارجي وهذا ما أسميه باختصار « الدورة » période . إذن ، اعتبر بأن مقاومة حواجز التماس لا تؤدي وظيفتها إلا لأجل التحول الانتقالي للكمية (ك) ولكن أعتبر بأن دورة حركة الخلايا العصبية إنما تنتشر في كل مكان ، من غير أن تصادف عوائق ، على طريقة ظاهرة التحريض [2] .

---

(١) ورد هذا المصطلح في النص باللغة اللاتينية : Restituo in integrum أي العودة الى الحالة السابقة .

(٢) تحريض أو حث Induction وبهذا المعنى فسرت هذه الكلمه الأجنبية التي وردت في النص الأصلي والمعلوم أنهـا تشمل على معان مختلفة وذلك نظراً لاستعمالها في ميدان الرياضيات أو الميدان المغناطيسي أو البيولوجي أو الميدان الكهربائي . والأرجح أن فرويد أراد استعمال الكلمة هذه في الميدان الفيزيائي إذ اعتمد في شرحه فيما يخص هذا النص على تشبيه منسوب الى الميكانيكا الفيزيائية . لذلك ارتكزت على كلمة تحريض أو حث .

أما التفسير البيولوجي فهو التالي : تخلق أي تبدل يحدث في الأنسجة والأعضاء طوال الحياة ابتداء من إخصاب البويضة .

تظل نقاط عديدة بحاجة الى توضيح من ناحية الفيزياء إذ هنا ، شأن أي موضع آخر ، إن القوانين العامة للحركة يجب أن تطبّق ، دون شك . إنما نظريتي ترمي الى أبعد من ذلك . إستناداً اليها ، إن الخلايا العصبية الحواسية ، غير القادرة على تلقي الكميات (ك نَ) تستوعب في مقابل ذلك ، دورة الإثارة . بالنسبة لها ، بمجرد كونها متأثرة من قِبل الدورة بينما هي غير ممتلئة إلا بالمقدار الأدنى من الكمية (ك نَ) إنما تشكل ركيزة الحالة الواعية وجدانياً . بالمطبع أن الخلايا العصبية (نَ) تملك دورتها ، لكنها مجردة من نوعيتها أو بالأصح ، إنها رتيبة . كل تغيُّر لهذه الدورة النفسية النوعية يظهر فجأة بشكل نوعيات ، داخل الوجدان الواعي .

من أين ينشأ هذا التنوع في الدورات ؟ جميع الدلائل تشير الى أنه وليد الأعضاء الحواسية بحيث يجب أن تكون النوعيات متمثلة بواسطة دورات مختلفة من حركة الخلايا العصبية . إن الأعضاء الحواسية لا تتصرف فقط كحواجز تعيِّر الكمية (ك) – شأن جميع النهايات العصبية – ولكن أيضاً كفرابيل ، بحيث لا تسمح بمرور ، من بين المنشطات الحواسية ، إلا التي تخص بعض العمليات المتعاقبة ذات دورات محدَّدة . بلا شك ، إنها تنقل هذه الفروق الى الجهاز (نَ) ، وهي توصِل الى الدورات حركات الخلايا العصبية مزوَّدة بالفروق وهي تذكِّر بطريقة ما [فروق العمليات المتعاقبة التي تحدث في العالم الخارجي] : الطاقة النوعية . إن هذه التغييرات الصادرة عن الجهاز (ك) والتي تجتاز

الجهاز (نَ) كي تصل أخيراً الى الجهاز (و) (W) التي هي ، منذ ذلك الوقت ، محرومة كلياً تقريباً من الكمية ، إنما تخلق أحاسيس واعية خاصة بالنوعية . هذا الانتقال الخاص بالنوعية ، ليس مستديماً ، لا يترك أي أثر ولا يمكنه أن يتكرر .

الحالة الواجدنية الواعية

بواسطة هذه الفَرَضيات المعقدة والمؤكّدة قليلاً بحد ذاتها ، توصلت حتى الآن الى دمج الظاهرات الخاصة بالوجدان ضمن بنية علم النفس الكمي .

لن نحاول بالطبع تفسير السبب الذي من أجله تفرض العمليات المتعاقبة للاثارة والتي تحدث داخل الخلايا العصبية المحسوسية (و ن) ، حالة وجدانية واعية . تنحصر مهمتنا فقط في اكتشاف العمليات المتعاقبة المختلفة التي يتم تحقيقها داخل الخلايا العصبية المختصة بالادراك الحسي والتي هي متوازية لخاصيات الوجدان المعروف سلفاً بالنسبة لنا . هنا ، باختصار ، يكون العمل سهلاً نوعاً ما .

لنبدأ بمقارنة هذه النظرية الخاصة بالحالة الوجدانية الواعية ، مع سواها من النظريات . على ضوء نظرية إوالية [1] حديثة ، لن تكون الحالة الوجدانية

---

(١) إوالية أو ميكانيست أي متعلقة بالإوالية الفلسفية (Mécaniste) : أي الفلسفة التي تبشر بالميكانيسم (الاوالية) . الميكانيسم : نظرية فلسفية تعتبر الحياة مجموعة من أعضاء تعمل مثل الآلة : إوالية ديكارت Mécanisme de Descartes .

الواعية إلا المساعد البسيط للعمليات المتعاقبة (السيكو – الفيزيولوجية) ، هذا المساعد الذي لا يؤثر إطلاقاً في مجرى الوقائع النفسانية . استناداً الى فرضية أخرى ، إن الحالة الوجدانية الواعية تشكل الجانب الذاتي لأية حالة نفسية وتُصبح هكذا متلازمة للعمليات المتعاقبة الفيزيولوجية ـ العقلية . بين هاتين النظريتين ، توجد نظريتنا . واستناداً اليها ، فإن الوجدان الواعي يمثل هنا الجانب الذاتي لقسم من العمليات المتعاقبة البدنية (الفيزيقية) التي يتم حدوثها في صميم جهاز الخلايا العصبية ، أي العمليات المتعاقبة الحواسية (العمليات و) ؛ إن غياب الوجدان يؤثر على الحوادث النفسية ويفرض عدم حضور العنصر المنبثق من الجهاز W (نَ) .

لما نظهر الحالة الواعية الوجدانية بواسطة الخلايا العصبية الحواسية ، إنما يعقب ذلك حدوث نتائج عديدة . هذه الخلايا العصبية محتاجة الى تفريغ مهما كان قليلاً وتوجد بالطبع طريقة ما ، لتعبئة الخلايا العصبية الحواسية بالكمية الضئيلة (ك نَ) الضرورية . شأن أي مكان آخر ، يتولد التفريغ بواسطة حالة قدرة التحرك Motilité . ومما يجدر ملاحظته في هذا الصدد ، هو اختفاء كل ما يميز النوعيات ، كل خاصية زمنية ، وذلك أثناء التغير المتحرك . من المؤكد بأن الخلايا العصبية الحواسية لا يتم تعبئتها إلا بكمية ناتجة عن الجهاز (نَ) ، إذ نود إلغاء أي ارتباط مباشر بين هذا الجهاز الثالث والجهاز (و) . من المستحيل إعطاء فكرة عن القيمة البيولوجية الأصلية للخلايا العصبية المختصة بالإدراك الحسي .

لكننا لم نقدم حتى الآن إلا وصفاً ناقصاً عن محتوى الوجدان الواعي ؛

ما عدا مجموعة من النوعيات الحواسية ، إنـه يتضمن مجموعة أخرى ، مختلفة للغاية وهي التي تخص أحاسيس اللذة والكدر ، ومن المستحسن أن نشرح ذلك الآن . نعلم أنه يوجد في الحياة النفسية ميلٌ معين لتجنب اللذة ، إننا إذن معرّضون لخلط هذا الميل مع الميل الأول ، الذي هو في حالة سكونية . عند هذه الحالة ، إن الكدر يتوافق مع ارتفاع مستوى الكمية (ك نَ) ، أو مع ازدياد الضغط ؛ يتم إدراك إحساس ما ، وذلك عندما تزداد الكمية (ك نَ) في الجهاز (نَ) . تولد اللذة من إحساس بالتفريغ . إذ نظن ، ما دام الجهاز (W) ممتلئاً بواسطة الجهاز (نَ) ، ينتج عن ذلك بأن الشحنة تزداد في الجهاز (W) عندما يرتفع المستوى عند الجهاز (نَ) وينقص عندما ينخفض هذا المستوى ، هكذا يصبح اللذة والكدر أحاسيس ناتجة عن الشحنة بالذات ، عند المستوى الخاص للجهاز(W) ، بينما يعمل الجهازان (W) و (نَ) تقريباً مثل الأنابيب المثقّلة . بهذه الطريقة تبلغ العمليات المتعاقبة للكمية في الجهاز (نَ) ، الوجدانَ الواعي بشكل نوعي .

إن إمكانية الادراك الحسي للنوعيات الحواسية التي ترقد – كما يقال – في منطقة اللامبالاة ، بين اللذة والكدر ، تختفي في الوقت ذاته [1] .

---

(١) ذكر فرويد هذه الفكرة مرة ثانية في الفصل الأول من « فيما يتعدى مبدأ اللذة » وحيث ينسبها الى فيشنر Fechner .
غوستاف تيودور فيشنر : فيلسوف الماني ولد في(غروس سارشن) Gross - Sarchen عام١٨٠١ وتوفي عام١٨٨٧ ، أحد مؤسسي البسيكوفيزيقا Pnychophuysique ، صبغ القانون المعروف باسم قانون (وبر فيشنر) Weber - Fechner وفحواه : « إن الاحساس يتغير مثل لوغاريتم التهيج » . (لوغاريتم أي عـالم أنساب الأعداد logarithme) .

نفسر هذا الواقع بالطريقة الآتية : في الخلايا العصبية المختصة بالإدراك الحسي (wN) توجد نقطة الذروة المختصة بقابلية التأثير بصدد دورة حركة الخلايا العصبية عندما تكون مزوّدة بشِحنة معينة . عندما تزداد الشِحنة تُوجد الكدر ، عندما تنقص ، تتولد اللذة : الى اللحظة حيث **لا توجد الشحنة إطلاقاً** . لزم تشييد شكل الحركة المذكورة ، استناداً الى هذه المعطيات .

طريقة عمل الجهاز

أصبحنا الآن قادرين على إظهار طريقة عمل الجهاز المكوّن من الأجهزة (ك) ، (نَ) و (و) .

إن كميات التهيج الصادرة من الخارج ، تقترب من النهايات العصبية للجهاز (ك) . عند اصطدامها أولاً بهذه النهايات ، تنقص حق أجزاء ذات مقدار بوجه الاحتمال ، أعلى من مقدار التهيجات البيخلوية (وربما تكون ذات المقدار الأول) . هنا يوجد الحد الأدنى من المُدرك[1] . من تحت كمية معينة ، لا يولد أي جزء فعال ، بحيث أن قدرة فعالية المنشطات الحسية تحدّد نوعاً ما ، عند كميات متوسطة . بالإضافة الى ذلك إن الغُلُف العصبية تعمل بفعالية على طريقة الغربال ، بحيث تجعل بعض أنواع المنشطات الحسية عديمة الفعالية ، عند النهايات العصبية المختلفة . إن التهيجات التي تصيب حقاً الخلايا العصبية (ك) ، تملك

---

(١) عتبة : Seuil . وتعني أيضاً من الناحية السيكولوجية : الحد الأدنى من المدرك ، وتعني أيضاً: عتبة الشعور Scuil de la Conscience أي المستوى الذي تبدأ عنده الخبرة في الظهور . واستناداً الى محتوى النص ، التزمت المعنى السيكولوجي الأول .

خاصية من النوع الكمي والنوعي في آن واحد [1] . يوجد تكوين في العالم الخارجي ، لمجموعة تملك ذات النوعية (شأن المنشطات الحسية) ودرجة من الكمية النامية من الحد الأدنى من المُدرك حتى حدود الألم .

بينما تكوّن العمليات المتعاقبة في الخارج ، كمية متسلسلة من الناحيتين – حسب الكمية والدورة (النوعية) – تكون الإثارات المتوافقة ، فيما يتعلق بالكمية ، منقوصة أولاً ثم محدودة بواسطة الانقطاع . فيما يخص النوعية ، إنها متقطعة ، بحيث أن بعض الدورات لا تعمل أبداً كمنشطات حسية . (الرسمة البيانية رقم ١) .

إن النوعية ، هذه الخاصية المتميزة للاثارات ، تجتاز بلا عراقيل الجهاز (ك) خلال الجهاز (نَ) ، كي تصل أخيراً الى الجهاز (و) حيث تخلق الاحساس ؛ إنها تتمثل في الدورة الخاصة لحركة الخلايا العصبية ، والتي ليست بالتأكيد ذات الدورة التي تخص المنشطات الحسية ، مع أنها تحتفظ ببعض العلاقات معها ، استناداً الى صيغة الاختزال التي نجهلها . هذه الدورة لا تدوم طويلاً وتختفي وهي تتبع المجرى المحرّك . ويظل هذا الممر مفتوحاً أمامها ، لكنها لا تترك وراءها أي أثر ذاكري .

إن كمية المنبِّه (ك) تقوي ، في الجهاز العصبي ، الميل نحو التفريغ وتتحرك كإثارة محرّكة متناسبة . (الجهـاز المحرّك مرتبط مباشرة

---

(١) في سبيل التوضيح نشير الى الأمر التالي : لا «العمليات المتعاقبة» في العالم الخارجي، ولا « المنشطات الحسية » التي تجتاز « جهاز النهايات العصبية » في الجهاز (ك)، ولا حالات الحصار في الجهاز (ك) أو (ن) تملك النوعية ، ليس لديها سوى « دورة » متميزة التي عند وصولها الى الجهاز (و) ، تصبح نوعية .

بالجهاز (ك)). إن الكميات المهتَدية بهذه الطريقة ، تولد تأثيراً يفوقها كثيراً من الناحية الكمية ؛ إنها تخترق بالفعل العضلات ، الغدد ، الخ . وتتصرف على طريقة تحرير الكميات بينما لا يحدث بين الخلايا العصبية سوى نقل الكمية فقط .

بالإضافة الى ذلك ، إن الخلايا العصبية (نَ) تنتهي في الخلايا العصبية (ك) بحيث يكون قسم من الكمية (ك نَ) منقولاً ، ولكن ربما يكون فقط جزءاً بسيطاً متوافقاً مع أهمية المنشطات البيخلوية . لنتساءل الآن اذا كانت الكمية (ك نَ) المنقولة الى الجهاز (نَ) لا تنمو بالتناسب مع الكمية (ك) الخاصة بالتيار عند الجهاز (ك) ، بحيث أن منبهاً أكثر فعالية يقدر على توليد تأثير أكثر أهمية . يبدو هنا بأنه يوجد إعداد خاص للاحتفاظ بالكمية (ك) بعيدة عن الجهاز (نَ) . إن مسالك التوصيل الحواسية عند الجهاز (ك) ، تملك بنية خاصة : إنها تتشعب بلا انقطاع وتقدم مسالك أكثر سماكة أو أكثر رقة والتي تملك نهايات عديدة . إن الرسمة البيانية (رقم ٢) ستساعدنا على الأرجح لفهم هذا الأمر.

إن الإثارة القوية تتبع مسالك مختلفة عن المسالك التي تتبعها إثارة أضعف منها . مثلاً ، إن الكمية (ك نَ) لا تمر إلا من خلال المسلك (ي) وتنقل جزءاً في الجهاز (نَ) عند النقطة النهائية (أ) . إن الكمية (ك نَ ٢) (أي الكمية الـــتي هي بمقدار مرتين أقوى من الكمية (ك نَ ي) لن تنقل جزءاً مضاعفاً الى النقطة النهائية (أ) ، ولكنها ستكون قادرة على اجتياز المسلك (ي) ، الأضيق من المسلك (ي) ، وقادرة على فتح نهاية ثانية (نَ) ، (عند ب) . إن الكمية (ك نَ ٣) ، تفتح المسلك الأضيق وتسيّر عملية الانتقـال خلال الانتهـــاء (ف) .

هكذا ، كل مسلك (ك) سيكون متحرراً من شحنته وستظهر الكمية الأكبر عند الجهاز (ك) وذلك بحكم وجود خلايا عصبية عديدة ، عوضاً عن واحدة ، محاصرة عند الجهاز (نَ) . جميع حالات التطويق الخاصة بالخلايا العصبية المختلفة (نَ) ، بمقدورها عند حالة مشابهة ، أن تكون بذات الأهمية . عندما الكمية (ك نَ) عند الجهاز (ك) تولد شحنة عند الجهاز (نَ) ، عندها ، تظهر الكمية ك نَ ٣ ، بواسطة الشحنة عند الجهاز نَ ي + نَ ٢ + نَ ٣ . هكذا إن الكمية في الجهاز (ك) تتبين بواسطة المضاعفات عند الجهاز (نَ) . بهذه الطريقة ، تحتفظ الكمية (ك) بعيداً عن الجهاز (نَ) ، على أقل تعديل ، عند حد معين . كل ذلك يذكرنا بقانون فيشنر الذي من الممكن حصره في موضع محدد [1] .

بهذه الطريقة ، إن الجهاز (نَ) انطلاقاً من الجهاز (ك) ، يجد نفسه مشحوناً بكميات (ك) ، التي هي عادياً ، ضعيفة . إن كمية الإثارة (ك) تظهر عند الجهاز (نَ) ، بواسطة المضاعفات والنوعية بواسطة الطبوغرافيا ، إذ استناداً الى العلاقات النسبية التشريحية ، لا تتصل الأعضاء المختلفة الحواسية ببعضها البعض إلا بواسطة خلايا عصبية (نَ) محدّدة حدداً . مع هذا ، فإن الجهاز (نَ) يتلقى أيضاً حالات تطويقية صادرة من داخل الجسم ومن المنطق تقسيم الخلايا العصبية (نَ)

---

(١) تفسير الصلة النسبية الموجودة بين تغييرات الشدة والتبدلات التي تسوقها هذه التغييرات في الاحساس المتوافق ، يبدو بأن فرويد يقترح بأن يطبق قانون فيشنر عند هذه النقطة الخاصة في جهاز الخلايا العصبية .

الى فئتين : خلايا الباليوم (أي لحاء الدماغ) Pallium [1] التي تتلقى حالاتها التطويقية من الجهاز (ك) والخلايا النووية التي تتلقاها من مسالك التوصيل الداخلية النمو .

---

(١) ميز الاخصائيون بعلم الأنسجة الحية hiatologistes ، في القرن الأخير ، طبقتين للخلايا أساسيتين اللتان تخصان الخلايا العصبية في قشرة الدماغ Corte Cérébral وأعطوا اسم (باليوم) أي لحاء الدماغ ، للطبقة الخارجية . إن التشريح العصبي كشف عن وجود مطابقة (أي وضع الخلايا في طبقات) أشد تعقيداً بصورة فارقة للغاية .

مسالك التوصيل (ن)

إن القسم النووي من الجهـاز (نَ) مرتبط بالمسالك حيث ترتفع الكميات الداخلية النمو للتهيج (ك) . نرى أنفسنا مضطرين الى التزام رأينا الأصلي ، بحيث أن المسلك المباشر يقود من داخل الجسم الى الخلايا العصبية (نَ) ، وذلك من غير أن ننكر إمكانية الارتباطات بين هذه المسالك والجهاز (ك) . (راجع الفصل السابق «وجهة النظر البيولوجية»). ولكن ينتج عند ذلك بأن يجد نفسه الجهاز (نَ) معرضاً بلا حماية للكميات (ك) الصادرة من هنا وفي هذه الحالة الملموسة (سنرى ذلك في الفصل التالي) تكمن القوة المحركة للاواليات النفسية .

إن ما نعرفه عن الإثارات الداخلية النمو ، يفسح لنا المجال للقول بأنها من طبيعة بيخلوية ، بأنها تتوالد بشكل مستمر كي لا تتحول إلا دورياً الى تهيجات نفسية . إن فكرة التراكم ليست مرفوضة وتواتر عملها النفسي يقودنا نحو التفكير التـالي : إن هذه المنشطات الحسية ، أثناء توجهها نحو الجهاز (نَ) ، إنما تصطدم بحالات من المقاومة التي لا يمكن قهرهـا إلا اذا ازدادت كميـة الإثارة . يتعلق الأمر إذن ، بمسالك الايصال المنظمة بشكل مجموعات ، مزوّدة بحواجز احتكاك

عديدة والتي تصل أخيراً الى نواة الخلية (نَ) . مع هذا ، فإن المنشطات الحسية التي هي فوق كمية معينة (ك) ، تملك فعلاً مستمراً ، وكل زيادة للكمية (ك) ستكون مدركة كزيادة لمنبِّه الجهاز (نَ) . توجد إذن حالة حيث أصبحت مسالك الايصال ممكنة الاجتياز . بالإضافة الى ذلك ، إن التجربة تبين بأن مسلك الايصال ، بعد تفريغ الاثارة (نَ) ، يسترجع مقاومته للمرة الثانية .

نعطي لهذا النوع من العملية المتعاقبة اسم « تحرُّض العضلات »[1]. بحكم هذه الحالة من التحرض، إن مسالك التوصيل (نَ) تمتلىء الى اللحظة التي تُصبح فيها قابلة النفوذ . بالطبع ، إن ضعف المنشطات المختلفة يفسح المجال لحالة التحرض كي تتوالد . لقد أوضحنا أيضاً عن وجود تحرض في مسالك التوصيل (و) — مثلاً عند حالة مرور الألم — ولكن فقط لأجل كميات قليلة . إن أقل دور للتحرض من جانب الجهاز (و) يقترح وجود حالة لها علاقة بكميات (ك) أكثر أهمية . إن الكميات الضعيفة جداً ، يبدو بأنها محفوظة بحكم عمل جهاز النهايات العصبية التي تصلح كالحد الأدنى من المُدرك Seuil ، بينما من جانب الجهاز (نَ) حيث يكون هذا الجهاز غير موجود ، إن الكميات الضعيفة (ك نَ) وحدها تتصرف .

يجدر الملاحظة بأن الخلايا العصبية التوصيلية (نَ) بمقدورها أن تملك

---

(١) تحرض العضلات (على أثر تحريضات متتالية) أي بالفرنسية Sommation . إنه معنى بيولوجي . وهذا لما التزمته بالعربية استناداً الى محتوى النص بالألمانية . وفي ميدان الرياضيات ، كلمة (سوماسيون) تعني جمع كميات يرمز له (3) .

خاصيات إنفاذية ولا إنفـاذية ، إذ رغم مرور الكمية (كَ نَ) ، إنها تسترجع تقريباً مقاومتها بصورة كاملة . وهذا الواقع يناقض تماماً الرأي الذي كوناه فيما يخص نوعية الخلايا العصبية (نَ) التي سيجتازها دائماً تيار الكمية (كَ نَ) (راجع الفصل السابق : حواجز التماس) . كيف نفسر هذا التناقض ؟ حسناً ، ذلك باعتبار أن رجوع المقاومة الى أصلها ، بعد مرور التيار ، يشكل خاصية عامة لحواجز الاحتكاك . هذه الطريقة في النظر، تتوافق بلا صعوبة ، مع الواقع التالي : تكون الخلايا العصبية (نَ) متأثرة [بحكم مرور الكمية] فيما يتعلق بالتسهيل . بعد ذلك، نعتبر بأن التسهيل الذي يبقى مستديماً بعد مرور الكمية (كَ)، يتكوّن ، ليس بحكم الغاء كل مقاومة ، ولكن بحكم إضعاف هذه الحالة الأخيرة، حتى درجة الحد الأدنى الضرورية. وأثناء مرور الكمية (كَ)، تُلغى المقاومة لتجد نفسها بعد ذلك ، وقد أعيدت الى حالتها الأصلية: ولكن فقط حتى مستوى معين يتناسب مع الكمية (كَ) الذي مرّ، بحيث أن كمية أصغر من الأولى، تستطيع اجتياز ذلك في المرة القادمة، وهكذا دواليك . وفي حال رسوخ تسهيل مـا ، تظل مقاومة معينة مستديمة ، تساوي كل حواجز التماس ؛ لزم أن تزداد الكميات (كَ) حتى مقدار معين من الحد الأدنى من المُدرك ، كي تُصبح قـادرة على اجتيازها . تكون هذه المقاومة ثابتة . هكذا ، لما تتصرف الكميات الداخلية النمو (كَ نَ) على طريقة التحرض ، هذا يعني بأنها مؤلفة من إثارات ضعيفة جداً ، من إثارات أقل من الحـالة الثابتة . يوجد تسهيل شامل في المسالك الداخلية النمو الخاصة بالتوصيلة .

بالنتيجة تكون حواجز التماس (نَ) بوجه عام أكثر ارتفاعاً من

مسالك التوصيل الداخلية النمو، بحيث أن تراكماً جديداً للكمية (ك نَ) من الممكن أن يتحقق في الخلايا العصبية النووية . عندما يمتلىء مسلك التوصيل ، لن يعرف هذا التراكم أي حدود له . إن الجهاز (نَ) هو تحت رحمة الكمية (ك) وهكذا يُولد ، داخل الجهاز ، الاندفاع التحريضي الذي يحافظ على نشاط نفسي بكامله . نعلم بأن القوة هـذه هي « الارادة » ، المشتقة من « الغرائز » (راجع الفصل القابل : « العمليات المتعاقبة الأولية . النوم والأحلام ») .

•

تجربة الاشباع

إن ملء الخلايا العصبية النووية عند الجهاز (نَ) ، يحتاج بالنتيجة الى التفريغ ، الى النوبة ، التي سيتم تحقيقها بواسطة قدرة التحرك . إن التجربة تشير الى أن المسلك الأول الذي يلزم اتباعه ، فهو المسلك الذي يؤدي الى **تغيير داخلي** (تصرفات انفعالية ، صرخات ، حالات إعصاب عضلية) . ولكن - لقد ذكرنا ذلك سابقاً - لا يخفّض الضغط أي تفريغ من هذا النوع ، طالما تظل إثارات داخلية النمو تتدفق رغم كل شيء وقد استرجع الضغط (نَ) حالته السابقة . لا يمكن أن تُلغى الإثارة إلا بواسطة تدخل قادر مؤقتاً على تحرير الكميات (ك نَ) داخل الجسم . هذا النوع من التدخل ، يستوجب توليد تغييراً معيناً في الخارج (مثلاً حصة الغذاء ، جوار الغرض الجنسي) ، تغييراً لا يمكن أن يتم حدوثه ، بصفته عمل نوعي ، إلا استناداً الى وسائل معينة . إن الجسم البشري ، عند مراحله الباكورية ، غير قادر على توليد هذا الفعل النوعي الذي لا يمكن تحقيقه إلا بالمساعدة الخارجية وعند اللحظة حيث يكون اهتمام الشخص العارف مركّزاً على حالة الطفل . لقد أنذره هذا الأخير ، بحكم حصول تفريغ على مسلك التغييرات الداخلية

(بواسطة صراخات الطفل، مثلاً) . إن مسلك التفريغ يكتسب هكذا مهمة ثانوية ذات أهمية قصوى : وهي مهمة الفهم المتبادل . هكذا يُصبح العجز الأصلي للكائن البشري المصدر الأول لجميع الحواجز الأخلاقية . (راجع الجزء الثالث من هذا الكتاب) .

عندما ينفذ الشخصُ المسعِف لأجل الكائن العاجز ، الفعل النوعي الضروري ، عندها يجد نفسه هـذا الأخير قادراً ، بفضل إمكانياته الانعكاسية [1] على تحقيق فوراً ، داخل جسمه ، ما يفرضه الغاء المنبّه الداخلي النمو . إن مجموع هذه العملية المتعاقبة يشكل « واقعاً للاشباع » الذي يملك، في التطور الوظيفي للفرد، النتائج الأكثر أهمية . في الواقع، ثلاث ظاهرات تولدت في الجهاز (نَ) : ١) حصل تفريغ مستديم ، هذا ما يؤدي الى حذف الضغط الذي أثار في الجهاز (و) الكدر . ٢) التطويق المتوافق مع الادراك الحسي للشيء، يحدث في خلية عُصبية واحدة أو في عدة خلايا عصبية مختصة بلحاء الدمـاغ (باليوم) . (راجع بداية الفصل السابق « مسالك التوصيل ») . ٣) نقاط أخرى من لحاء الدماغ تتلقى تبليغ التفريغ الذي تم تحريضه بحكم انطلاق الحركة الانعكاسية التي لحقت بالفعل النوعي . تم ترسيخ تسهيل بين هـذين التطويقين (١) و (٢) والخلايا العصبية النووية (التي كانت مشحونةً إنطلاقاً من المصادر الداخلية النمو أثنـاء مرحلة الاستعجال) .

---

(١) الانعكاس أو ردة الفعل العصبية Réflexe أو مجموعة التهيج الحواسي المنقول الى المركز بواسطة المسلك العصبي والجواب المحرك أو الغدري، لاإرادي بصورة دائمة الذي تم تهييجه بواسطتها .

يحدث تبليغ ردة الفعل العصبية المختصة بالتفريغ بفضل الأمر التالي: كل حركة ، بحكم النتائج الثانوية ، تفسح مجالاً لتهيجات حواسية جديدة ـ للجلد وللعضلات ـ هذه التهيجات تولّد عند الجهاز (و) صورة محرّكة (أو حسية حركية Hinesthésique) .

إن الطريقة التي يتم فيها توليد التسهيل ، تساعدنا على فهم تطور الجهاز (نَ) بصورة أفضل . لقد علمنا قبلاً بأن الخلايا العصبية (نَ) كانت تتلقى فعل الخلايا العصبية (و) ، من خلال المسالك الداخلية النمو المختصة بالتوصيل ، بينما الخلايا العصبية المختلفة (نَ) منفصلة عن بعضها البعض بواسطة حواجز التماس المزودة بمقاومات قوية . إذ يوجد قانون أساسي للتداعي [1] بواسطة التزامن [2] وهذا القانون يلعب دوراً أثناء النشاط الصافي للجهاز (نَ) [أثناء التوالد بواسطة الذكرى] ويقدم الأساس لجميع الارتباطات ما بين الخلايا العصبية (نَ) . نجد بأن الوجدان الواعي (أي الشحنة من النوع الكمّي) يمر من خلية عصبية (ا) الى خلية عصبية أخرى (ب)، عندما يتلقى (ك) و (ب) دُفعة واحدة شحنة آتية من الجهاز (و) (أو من سواه) . هكذا إن الشِحنة المتزامنة (ب ـ ا) اجتذبت تسهيل حاجز التماس . نتيجة لذلك (وبمقتضى ذات العبارات التي نستعملها في نظريتنا) ، تمر كمية (ك نَ) بشكل أسهل، من خلية عصبية معينة الى خلية عصبية مشحونة بدلاً من المرور في خلية عصبية غير مشحونة . هكذا إن شِحنة الخلية العصبية الثانية

---

(١) التداعي الفكري Amociation de idées حالة سيكولوجية بحيث توحي الفكرة أو الصورة ، فكرة أخرى أو صورة أخرى .

(٢) تزامن Simultanéité أي حالة وجود أفعال عديدة في ذات اللحظة .

ستُزيد من شِحنة الأولى وفي هذه الحالة أيضاً **تبدو الشحنة متكافئة عند التسهيل ، بالنسبة الى مرور الكمية (ك نَ) .**

هنا نرى ظهور عامل ثانٍ مهم الذي يعيّر مجرى الكمية (ك نَ) . هذه الكمية (ك نَ) الموجودة في الخلية العصبية (ا) لا تلتزم فقط اتجاه الحاجز الممهّد بأفضل طريقة ، ولكنها تلتزم أيضاً اتجاه الحاجز المحاصر من الجهة المقابلة . من الممكن أن يتعاون هذان العاملان أو أن يتعارضا ، عند حالات معينة .

هكذا يصل الاشباع الى تسهيل بين صورتين ذاكريتين [صورة الغرض المرغوب وصورة الحركة الانعكاسية] والخلايا العصبية النووية التي كانت محاصرة أثناء حالة الضغط . من المؤكد بأن الكمية (ك نَ) – أثناء التفريغ الموجّه بواسطة الاشباع – تجري أيضاً خارج الصورة الذاكرية . منذ إعادة ظهور حالة الضغط أو الشهوة ، تُنقل الشحنة أيضاً الى الذكريين وتجدد نشاطها . من المعقول جداً أن تكون الصورة الذاكرية للغرض ، التي هي الأولى ، قد أصيبت بتجديد النشاط .

إني أعتقد بأن رد الفعل هذا، إنما يقدم أول الأمر، شيئاً ما مماثلاً للادراك الحسي ، أي الهَلْوسة [1] . بهذا ، اذا حصل تحريض لدى الفعل الانعكاسي ، ينتج عن ذلك الاخفاق حتماً .

---

(١) الهلوسة Hallucination أي الاحساس المرضي، وليس هذا الاحساس وليد الاحساس بغرض حقيقي ، أو الادراك الحسي بلا غرض ما، مثلاً: السراب هو ضرب من الهلوسة.

تجربة الألم

طبيعياً ، إن الجهاز (نَ) يجد نفسه معرّضاً للكمية (ك) انطلاقاً من التوصيلات [1] الداخلية النمو . بشذوذ (ولكن ليس بعد بصورة باثولوجية) [2] ، عند الحالات حيث تقيم الحالات المتجاوزة الحد (ك) ثغرة في جهاز الحماية لاختراق الجهاز (و) ، أي عنـد حالات الألم (راجع الموضوع السابق بعنوان «الألم») ، إنها تولّد عند الجهاز (نَ):

---

(١) توصيل Conduction . توصيل السيالة العصبية مثلاً ، أي توصيل ظاهرة من طبيعة كهربائية، حيث أن تهيج الليفة العصبية ، ينتشر في العصب . وكلمة سيالة تعني باللاتينية التي هي المصدر: إنفلكسوس Influxus أي التأثير . إن سرعة انتشار السيالة العصبية تتراوح بين ١٠ و١٠٠ متراً في الثانية وذلك حسب الاعصاب وحسب الأنواع. لا يتعلق الأمر بتيار كهربائي ولكن بظاهرات من الاستقطاب واللااستقطاب بين المحور العصبي والغلاف الخارجي (Gaine) . تكون السيالة نابذة عندما تتجه من المراكز العصبية نحو الأعضاء (الأعصاب المحركة)، وتكون السيالة منجذبة عندما تتجه من الأعضاء نحو المراكز العصبية (أعصاب حسية) . (نابذة : Centrifuge) ، (منجذبة : Centripète) .

(٢) باثولوجية Bathologiquement أي من الناحية المرضية ، مصدر الكلمة اغريقي (باتوس : عذاب ، اوغوس : علم) أي علم أسباب وأعراض الأمراض .

١) ارتفاعاً مهماً لمستوى (الكمية) الذي يسبب عند (و) الكدر. راجع السابق « الحالة الوجدانية الواعية ») ؛ ٢) ميـــلاً نحو التفريغ الذي يمكن تغييره بصورة متنوعة ؛ ٣) تسهيلاً بين هـــذا الميل نحو التفريغ والصورة الذاكرية للغرض الذى سبّب الألم . أكيد بأن الألم يملك صفة خاصة يُشعر بـه مع حدوث الكدر ، في نفس الوقت .

إذا كانت الصورة الذاكرية للغرض العدائي (أي للألم بوجه عام) ، مشحونة تواً للمرة الثـــانية (بحكم المدارك الحسية الجديدة) ، تتغير الأحوال ، لا يوجد ألم ولكن بعض الشيء المماثل للألم ، بعض الشيء الذي يتضمن الكدر والحاجة للتفريغ المتوافق مـع الواقع المؤلم . مع الاعتبار بأن الكدر يفرض المستوى (المتزايد) للكمية ، نتساءل من أي تنبثق الكمية (ك نَ) ، أثنـاء الحادث الطارىء الحقيقي الذي أثار الألم ، حرضت الكمية المتدفقة من الخارج (ك) عند الجهاز (نَ)، ارتفاعـاً في المستوى . عند توالده – عند تأثره الأولي – إن الكمية الوحيدة (ك نَ) التي تظهر فجـأة هي الكمية (ك) التي تحاصر الذكرى . هذا الواقع هو بالطبع من نفس طبيعية أي إدراك حسي آخر ولا يمكنه توليد ازدياد عام فيما يخص الكمية (ك نَ) .

هكذا جاز الاعتقاد بأن تطويق الذكريات يحرض الكدر الصادر من داخل الجسم ، الكدر الذي ظهر فجأة من جديد . إن سَيْر أجهزة تحرير الكدر هذا ، لم يمكن تصوره إلا بالطريقة التالية : توجد خلايا

عصبية محرّكة التي ، عندما تبلغ شحنتُها درجة معينة ، تقود الكميات (ك نَ) في العضلات ، لتقوم بتفريغها بهذه الطريقة . بالمثل ، لزم وجود خلايا عصبية مفرِزة التي ، بعد أن تتلقى الإثارة ، تنتج داخل الجسم شيئاً مـــا الذي يعمل على طريقة المنبِّه على مسالك التوصيل الداخلية النمو والتي تؤدي الى الجهاز (نَ) . إن الخلايا العصبية هذه ، المختصة بالإفراز، إنما تؤثر على توليد الكميات الداخلية النمو (ك نَ) . على ضوء هذا الواقع ، عوضاً من تحريض تفريغ من هـذه الكميات الأخيرة ، تضيفها بواسطة دورات معينة . نصف هذه الخلايا العصبية المفرِزة (١) « بالخلايا العصبية – المفاتيح ». لن تتهيج بالطبع إلا عند الوصول الى درجة معينة عند الجهاز (نَ) . إن تجربـة الألم تقدم تسهيلاً رائعاً بين الصورة الذاكرية للغرض العدائي وهـــذه (الخلايا العصبية – المفاتيح) ، بفضل هـذا التسهيل ، يتحرر التأثر الأولي المُزعج .

إن هذه الفرضية المفاجئة ، (إنما لا يستغنى عنهـا) ، مدعومة بالطريقة التي تمّ فيهـا توليد الإحساس الجنسي . في الوقت نفسه ، نضطر الى الشك بالأمر التالي : في هذين المثلين ، إن المنشطات الداخلية النمو تتكون من منتجات كيميائية بحيث من الممكن أن يكون العدد مرتفعاً جداً . مع العـلم بأن توليد الكدر هو في بعض الأحيان مهم

---

(١) استعمل فرويد في المخطوط لكلمة « محرك » moteur ، طبعاً ، إنها هفوة قلم .

للغاية ، بينما تكون الذكرى المؤلمة مطوقة تطويقاً بسيطاً جداً ، بهذا نستخلص بأن الألم يترك وراءه تسهيلات وافرة بوجه خاص . عندها جاز لنا أن نشك بالأمر التالي: إن التسهيل متعلق كلياً بالكمية (ك نَ) المصابة ، بحيث أن تأثير التسهيل (٣ ك نَ) ، هو أكثر أهمية في بعض الأحيان من التأثير المختص بالكمية (ك نَ) والمكررة مراتٍ ثلاث . (راجع الموضوع السابق « وجهة النظر البيولوجية ») .

التأثيراتُ الأوّليّة وحالاتُ الشَهوَة

إن الآثار التي خلّفتها التجربتان العمليتان اللتان تحدثنا عنهما سابقاً (منها مَن ولّدت الإشباع ومنها مَن سببت الكدر) تُعتبر **التأثرات الأولية وحالات الشهوة** . فالحالتان تملكان صفة مشتركة إذ كلتاهما تفرضان ازدياداً في الضغط الكمي عند الجهاز (نَ) . عند حالة التأثرات الأولية ، يوجد تحرر مفاجىء ؛ عند حالة الشهوات ، يوجد تراكم . بالنسبة الى مرور الكمية عند الجهاز (نَ) ، تملك هاتان الحالتان أهمية كبرى، إذ تخلفان وراءهما القوى المحرّضة التي أثرت بهذا المرور، بقوة استحواذية اندفاعية [1] . كل حالة من الشهوة تخلق جاذبية نحو الغرض المرغوب وأيضاً نحو الصورة الذاكرية التي تخص هذا الأخير؛ كل حدث مؤلم يولّد التنافر ، الميلَ الذي يتصدى لتطويق الصورة الذاكرية العدائية . لدينا هنا **جاذبية ودفاع بدائيان** .

---

(١) Compulsionnellement وترجمة الكلمة بالعربية استناداً الى قاموس (وبستر) Webster : اندفاع استحواذي Obsessive inpulse والاندفاع استناداً الى قاموس المورد (منير بعلبكي) يعني من الناحية السيكولوجية: موجة من اهتياج تنقل عبر الأنسجة وبخاصة عبر الاعصاب والعضلات وينشأ عنها نشاط فسيولوجي .

إنـه من السهل تفسير الجاذبية الناتجة عن الشهوة ، وذلك بافتراض تطويق الذكرى الممتعة ، عند حـالة الشهوة ، أكثر أهمية من حيث الكمية (ك نَ) بالنسبة الى إدراك حسي بسيط ؛ في الحالة الأولى ، إن التسهيل بين نواة الخلية (نَ) والخلايا العصبية المتوافقة المختصة بالباليوم (لِحاء الدماغ) ، ناجح للغاية .

إن تفسير الدفاع الأولي أو « الكبت » صعب جداً ، أعني بذلك ، حالة الصورة الذاكرية العدائية وهي تفقد تطويقها، بالسرعة الممكنة (١). ربما وجب القول بأن انعكاس الدفاع ، وضع حداً نهائياً للتجربة الأولية المؤلمة . إن ظهور الغرض الذي جاء ليحل محل الغرض العدو ، يبشر الى أن التجربة المؤلمة قد انتهت ، وأن الجهاز (نَ) المزود علماً بواسطة التجربة البيولوجية ، يحاول أن يُحدث من جديد عند الجهاز (نَ) الحالة التي سجلت نهاية الموقف الموجع . إن العبارة «مزود علماً بواسطة التجربة البيولوجية » تسمح لنـا بترسيخ أسس جديدة لتفسير له قيمته الخاصة ، وذلك من غير أن نلغي قطعاً (بالعكس) اللجوء الى المبادىء الميكانيكية ، أي الى العوامل الكمية في الحالة الحاضرة ، من الممكن أن يقوي ازدياد الكمية (ك نَ) – الذي لا مفر منه عندما تكون الذكريات المؤلمة محاصرة – نشاط التفريغ وبسبب بذلك ، في الوقت ذاته ، انسياباً للكمية خارج الذكريات .

---

(١) التزم فرويد في هذا المؤلف بالذات تمييزاً بين الدفاع الأولي والكبت. لقد فصل مؤخراً، رد الفعل عند الألم عن الكبت .

المفاهيم الاولى «للأنا»

عندما نأخذ بعين الاعتبار فكرة «الجاذبية المحرّضة بواسطة الشهوة» والميل نحو الكبت ، نقترب بذلك ، من مسألة جديدة ، التي تخص حالة معينة من الجهاز (نَ) . في الواقع ، تبين العمليتان المتعاقبتان أمر تكوين لحاجة عند الجهاز (نَ) حيث يعرقل الحضور مرور (الكميات) عندما يتم حدوث المرور للمرة الأولى بطريقة خاصة (أي عندما يرافقه الإشباع أو الألم) . هذه اللحاجة تدعى « الأنا » . نَصف « الأنا » بسهولة وذلك عندما نبين بأن الاستقبال المكرر بصورة دائمة ، للكميات الداخلية النمو (ك نَ) في بعض الخلايا العصبية لنواة الخلية والتسهيل الناتج بالتحريض عن هذا التكرار، لا يلبث أن يولّد زمرة من الخلايا العصبية المشحونة بصورة مستديمـــة ، ويُصبح هكذا ناقل احتياطات الكميات التي تفرضها المهمة الثانوية [1] . إننا نصف « الأنا » إذن بقولنا أنه يشكل عند كل لحظة مجموع حالات التطويق (نَ) . عند

---

(١) الحصار الدائم للطاقة ، مهمة الكبت او تأخير بعض التفريغات والارتباط مـــع العملية المتعاقبة الثانوية ، كل ذلك يشكل جزءاً من خاصيات « لحاجة الأنا » ، على حد قول فرويد في مؤلفه النظري « الأنا والسا » Le Moi et le Ca وفي اعماله اللاحقة .

هذه الحالات، يتبين لنا جزء مستمر دائم وجزء متغير . ونلاحظ بسهولة بأن التسهيلات بين الخلايا العصبية (نَ) تشكل جزءاً من ميدان الأنا ، ما دامت تمثل إمكانية تقرير عنـد أي لحظة إتساع أنا المتحرك . بينما يحاول الأنا جاهداً التخلص من شحناته بواسطة الاشباع ، يتجه حتماً نحو تكرار التجارب المؤلمة والتأثرات الأولية ليؤثر عليها ، ولزم عليه القيام بذلك بالطريقة التالية الموصوفة بوجه عام « بالكبت » .

إن كمية (ك نَ) ، آتية من مكان ما ومخترقة الخلية العصبية ، تتابع طريقها مجتازة حواجز التماس المفتوحة وتثير تياراً في هذا الاتجاه أو بصورة أدق ، ينقسم تيار الكمية (ك نَ) ، استناداً الى طريقة متناسبة عكسياً لمقاومة حواجز التماس التي يصادفها ثم، عندما يصطدم جزء من الكمية بحاجز التماس ، حيث تكون المقاومة أقوى منهـا ، لا شيء يقدر على المرور عملياً . من الممكن أن يكون هذا الوضع مختلفاً فيما يتعلق بكميات (ك نَ) في الخلية العصبية ، إذ بعض الأجزاء التي تفوق (كمية الحد الأدنى) [1] من حواجز التماس الأخرى، قادرة على الظهور . هكذا ، إن العملية المتعاقبة تتعلق بالكميات (ك نَ) وبالقوة النسبية الخاصة بالتسهيلات : لكننا تعرفنا سابقاً الى عامل ثالث ومهم . تصبح الخلية العصبية الملاصقة مشحونة بصورة فجائية ، ويتم ذلك على طريقـــة التسهيل المؤقت الخاص بحواجز التماس بين الخليتين

---

(١) عتبة Seuil وبالمعنى السيكولوجي : الحد الأدنى من المدرك . ويقـال : Seuil de la Conscience اي عتبة الشعور اي المستوى الذي تبدأ عنده الخبرة في الظهور . ويقال ايضاً Sauil diférentiel اي كمية الحـد الأدنى للمنبه . والتزمت هذا المعنى الاخير استناداً الى فحوى النص ، (قاموس الكنز) .

العصبيتين ، فتتبدل مسيرة التيار الـــتي ، لولا ذاك ، لالتزمت اتجاه حاجز التماس الوحيد والذي يمهّد الطريق لذلك .

اذن ، ان حصاراً « جانبياً » يتصرف بصورة فعـالة وهو يعترض مرور الكمية (ك نَ) .

لنتخيل الأنا كشبكة للخلايا العصبية المحاصرة حيث تكون العلاقات المتبادلة سهلة . (انظر الى الرسمة البيانية رقم ٣) . ثم لنفترض بأن كمية (ك نَ) آتية من الخارج (و) تخترق الخلية العصبية (أ) اذا لم يؤثر عليها أي شيء ، تتجه نحـو الخلية العصبية (ب) . ولكنها في الواقع ، تتلقى تأثـير الشحنة الجانبية للخلية العصبية (أ) لدرجة انها لا تسلّم إلا جزءاً منها للخلية (ب) أو لن تصل إليها إطلاقاً . بهذا ، إذا وجدنا الأنا ، لزم أن يعرقل العمليات المتعاقبة النفسية الأولية .

غير أن كبتاً من هذا النوع ، يقـدم للجهاز (نَ) فائدة كبرى . لنفترض بأن الخلية (أ) تمثّل الذكرى السيئة والخليـــة (ب) تمثل الخلية الأساسية . لدى ظهور (أ) المفاجىء ، يحصل تحرر من الكدر ، من الممكن أن يكون طفيفاً ، بالأقل إذا كان التحرر تاماً . غير أنه ، بحكم العمل الكبتي للخلية (أ) ، يكون توليـد الكدر طفيفاً جداً ، واستبقى جهاز الخلايا العصبية ، تطور وتفريغ الكمية ، وذلك من غير أن يصاب بأضرار أخرى . إننا نرى بسهولة كيف – بمساعـدة سيْر أجهزة الجسم الذي يجذب انتباه [1] الأنا إلى حصار جديد للصورة المؤلمة –

---

(١) سيناقش دور الانتباه في القسم الثالث من هذا الكتاب .

يتوصل الأنا بعض الأحيان إلى توقيف مرور الكمية الصادرة عن هذه الصورة والتي تؤدي إلى توليد الكدر . ويصبح قابلاً بفضل حصار مهم ، للازدياد ، عندما تفرض ذلك ظروف ما . لنفترض بأن التوليد السيء البَدْئي للكميات (ك نَ) قد نال من (الأنا) ، عندها لزم أن يجد في داخله مصدر الكمية بحيث يظل الاستعمال ضرورياً لتحقيق حصار جانبي كبتي .

هكذا ، كلما كان الكدر كبيراً ، كلما كان الدفاع البَدْئي أكثر قوة.

العمليات المتعاقبة الأولية والثانوية لدى الجهاز (نَ) :

على ضوء ما ذكرنا سابقاً ، جاز لنا الاستنتاج بأنه يوجد وضعان حيث يكاد أن يقع الأنا عند الجهاز (نَ) في عجز خطير . (والذي بمقدورنا اعتباره ، بسبب ارتباطاته ، كمجموعة الجهاز العصبي) .

الذي هو في الوضع الأول من هذين الوضعين ، إن الأنا فريسة لشهوة ما ، يحاصر من جديد ذكرى الغرض ثم يحرّك العملية المتعاقبة للتفريغ بينما يكون الغرض غير حاضر حقيقة ولا يوجد إلا في الخيال ، فيكون كل إشباع مستحيلاً . عند مرحلة باكورية ، لا يستطيع الجهاز (نَ) إقامة هذا التمييز إذ لا يسعه العمل إلا مرتكزاً على مجموعة من الحالات المتشابهة بين خلاياه العصبية [أي بفضل تجارب سابقة بحيث تبيّن بأن الاشباع قد لحق بالحصار الغيري [1]] .

---

(١) الغيري Objectal متعلق بشخص آخر غير الأنا . (تعلق الطفل بأمه هو العلاقة الغيرية الأولى) . وكلمة الغيري altruiste تعني المؤثر الغير على الأنا (عكسها وتستعمل الكلمة الأولى objectal في ميدان علم التحليل النفسي (بسيكاناليز) .

فهذا إذن معيار تحكيمي آخر ، يُستخدم للتمييز بين الادراك الحسي والتصور [1] .

من ناحية ثانية ، إن الجهاز (نَ) يحتاج إلى العَرَض الذي يجذب انتباهه إلى الحصار المكرر للصورة الذاكرية العدائية والذي يتيح له تجنب ، بواسطة حصار جانبي ، التوّلد المتلاحق للكدر . عندما يكون الجهاز (نَ) قادراً على هذا الكبت في الوقت المناسب ، فيكون توليد الكدر والدفاع ضد هذا الأخير طفيفين . عند الحالة العكسية ، يكون الكدر قوياً جداً ويكون الدفاع البَدْئي متجاوز الحد .

عندما يتجدد حصار الذكرى ، تكون النتائج البيولوجية مضرة فيما يتعلق بشدة الشهوة وتوليد الكدر . يحصل ذلك عندما تتجاوز قوة الشهوة بعض الحدود وهي تسهّل هكذا عملية التفريغ . وهذا ما يحصل أيضاً بصورة دائمة لدى توليد الكدر عندما ينبثق حصار الصورة الذاكرية العدائية من الجهاز (نَ) بالذات (بواسطة الترابط [2]) وليس من الخارج . عند هذه الحالة الأخيرة ، نستطيع أن نميّز كذلك بواسطة الدالة ، بين الادراك الحسي والذكرى (أو التصور) .

---

(١) نجد في الصفحات التالية الصياغة الأولى للمفهوم الذي عبر عنه فرويد بترجمات مختلفة كي يصل نهائياً إلى الفكرة القائلة بأن تجربة الحقيقة الحسية تشكل وظيفة للانا . نجد مفاهيم أخرى وأقدم من سواها في « تفسير الأحلام » وفي « مبدأي السير العقلي Les deux principes du fonctionnement mental.

(٢) الترابط association وبالمعنى السيكولوجي مثلا : ترابط الأفكار أو تداعي الأفكار أي حالة نفسية حيث توحي الفكرة أو الصورة فكرة أخرى أو صورة أخرى . ويوجد مذهب فلسفي ويعرف باسم (associationnisme) ويعتبر ترابط الأفكار قاعدة الحياة العقلية .

على الأرجح ، إن الخلايا العصبية المحسوسية ، هي التي تزود هذه الدالة : « دالة الواقع الحسي » أي إدراك حسي خارجي يولّد دائماً عند الجهاز (و) بعض التهيّج النوعي الذي لا يملك أي تأثير على الجهاز (نَ) . إذن ، نضيف القول بأن التهيج المحسوسي يؤدي إلى تفريغ محسوسي وبأن تبليغ هذه الحالة الأخيرة (مثل جميع أنواع التفريغ) يصل إلى الجهاز (نَ) . إن تبليغ التفريغ هذا ، الصادر من الجهاز (و) ، الذي يشكل بالنسبة للجهاز (نَ) دالة خاصة بالنوعية او الواقع الحسي .

عندما يكون الغرض المرغوب محصوراً تماماً ويتخذ الهيئة الهَلْسية (١) تظهر ذات الدالة الخاصة بالتفريغ أو بالواقع الحسي كما هي الحالة عند الادراك الحسي الخارجي . عند هذه الحالة ، يكون المعيار التحكيمي (٢)

---

(١) الهلسية Hallucinatoire من هلوسة Hallucination أي حالة نفسية حيث يعتقد الشخص بأنه يدرك غرضاً ما ، بينما في الواقع لا يوجد تنبيه للحواس . ان الشخص الموجود في حالة من الهلوسة ، بامكانه أن يعتقد مثلا ، بأنه يسمع أصواتاً أو يرى أشكالاً ممسوخة راعبة ، بامكانه أن يعتقد أيضاً بأنه يتذوق أو يشم طعاماً ما ، وبأنه يلمس أو قد لمسه شيء ما الخ . يحدث كل ذلك من غير التنبيهات الحواسية المتوافقة. من الممكن أن يكون سبب الهلوسة آفة دماغية أو إدخال مخدر إلى المعدة أو الكحول . تكون الهلوسة بعض الأحيان ظاهرة فيزيقية محضة مثل الايحاء او التنويم المغناطيسي .
(دائرة معارف ألفا alpha صفحة ١٣٦٦ رقم ٦٩) .
(المترجم)

(٢) Critère أي المبدأ الذي نستند اليه والذي يفسح لنا المجال للتمييز بين الصواب والخطأ ، للتحكيم ، للتصنيف الخ ... وترجمت هذه الكلمة بعبارة (المعيار التحكيمي) استناداً إلى ابعادها الاصطلاحية . (مصدر الكلمة يوناني : كريتريون kriterion مشتقة من الفعل كرينابين اي حكم ، اعطى حكماً krinein .
(المترجم)

خاطئاً . ولكن إذا كانت شحنة الشهوة خاضعة **للكبت** inhibition – يصبح ذلك ممكناً عندما يكون الأنا محصوراً – من الممكن أن يَبرز بغتةً رد الفعل من النوع الكمّي ، حيث تكون شحنة الشهوة غير كافية أثنـــاء ذلك لتقديم دالة نوعية ، كما يحصل ذلك لدى الادراك الحسي الخارجي . عند هذه الحالة ، يحتفظ المعيار التحكيمي بقيمته . إن التمييز بين الإلحاحين منوط بحالة الدالات النوعية الصادرة من الخارج التي تظهر مهما كانت شدة الحصار ، بينما الدالات الصادرة مـن الجهاز (نَ) لا تتبين إلا إذا كانت الشحنة قوية . بالنتيجة ، **انه كبت وليد الأنا الذي يجعل تكوين المعيار التحكيمي ممكناً ، مفسحاً المجال لتوطيد تمييز بين الادراك الحسي والذكرى** . ثم تفيدنا التجربة البيولوجية علماً ، بأنه لا يجب تنفيذ التفريغ قبـل الظهور المباغت لدالة الواقع الحسي ، ولأجل هذا السبب ، لا يجب أن يتعدى حصارُ الذكريات المرجوة ، درجة معينة .

من ناحية ثانية ، من الممكن أن يصلح تهيّج الخلايا العصبية المحسوسية لحماية الجهاز (نَ) في الحالة الثانية ، أي بواسطة جذب انتباه الجهاز (نَ) إلى حالة حضور أو غياب الإدراك الحسي . نذهب إلى الاعتقاد إذن بـأن الخلايا العصبية الخاصة بالادراك الحسي (و نَ) كانت ، بالأصل ، مرتبطة تلقائياً بمسالك التوصيل الآتية مـن أعضاء حواسية مختلفة وبأن التفريغ قد حصل توجيهه من جديد نحـــو الجهاز المحرك الذي يخص ذات الأعضاء الحواسية . ثم ، إن تبليغ هـــذا التفريغ الأخير (أعني التبليغ بالانتباه المنعكِس) يتصرف مثل إشارة بيولوجية وهي تفيـد الجهاز (نَ) علماً ، بأن كميـة معينة من المحاصرة يجب إرسالها في نفس الاتجاه .

باختصار ، عندما يمارس الكبت بواسطة الأنا المحاصر ، تستعمل دالات التفريغ (و) بعامة كدالات للواقع الحسي بحيث يتعلم الجهاز فيما يخص الاستعمال ، بحكم التجربة البيولوجية . إذا كان هذا الأنا فريسة لشدة الشهوة عند لحظة الظهور المفاجىء لدالة الواقع الحسي ، إن هذه الحالة تؤدي إلى تنفيذ التفريغ بفضل العمل الجنسي الخاص . عندما يتوافق ازدياد الكدر مع دالة الواقع الحسي ، إن الجهاز (نَ) يؤسس عند النقطة المحددة ، حماية ذات شدة عادية بواسطة محاصرة جانبية كبيرة ملائمة . إذا لم يحصل شيء من هذا (أي إذا لم توجد حالة من الشهوة ولا حالة من ازدياد الكدر حينما يتم إدراك الواقع حسياً) ، تحصل المحاصرة بلا عائق ، وفقاً لشروط التسهيل المبرهنة . إن شحنة من الشهوة التي تصل الى حالة من الهلوسة ، الى التوليد الكامل للكدر والتي تفرض تدخّل الحماية بكاملها ، من الممكن أن توصف « بالطريقة المتعاقبة النفسية البَدئية » . وبالعكس ، نسمي « عمليات متعاقبة ثانوية » العمليات التي تجعل المحاصرة الجيدة للأنا وتعديل العملية المتعاقبة البدئية ، أمراً ممكناً . نرى بأن الحالة الأخيرة لا يمكن أن تتحقق الا بواسطة استعمال صحيح للدالات المختصة بالواقع الحسي ، هذا الاستعمال الذي يجعله الكبت الصادر من الأنا أمراً ممكناً[1] .

---

(١) نذكر هنا الفقرة التالية وذلك لافساح المجال للقارىء كي يقارن بين هذه النظريات والمفاهيم المعروضة في « تفسير الأحلام » : « نسمي شهوة هذا التيار من الجهاز النفسي من المكدر الى الممتع ... كانت الشهوة قبلا انشغالا هلوسياً بواسطة ذكرى التهدئة ... إني اتقيد بالفكرة القائلة بأن نشاط الجهاز الأول (ن) ، يتجه نحو التصريف الحر لكميات التهيج وبأن الجهاز الثاني، بحكم اهتماماته ، يوقف هذا التصريف ويحوله إلى انشغال غير متحرك ، وذلك على الأرجح بواسطة رفع المستوى . اعتقد اذن بأن تصريف التهيج موجود في احوال ميكانيكية مختلفة كلياً وذلك وفقاً لسيطرة الجهاز الأول او الثاني . عندما ينتهي الجهاز الثاني من عمله التجريبي، يفتح السدود ويسمح لحالات التهيج الانسياب نحو قدرة التحرك . (ترجمة أ. مايرسون Meyrson ، باريس) .

التفكير القادر على الادراك المنتج

إستناداً الى فرضياتنا ؛ ان المنع [1] صادر من الأنا الذي يميل أثناء الشهوة نحو تخفيف محاصرة الغرض ، ذاك ما يفسح المجال للتعرف الى وهميته . سنذهب الآن الى أبعد من ذلك ، فيما يخص تحليل هذه العملية المتعاقبة . وتوجد حالات عديدة .

عند الحالة الأولى ، تكون شحنة الشهوة المختصة بالصورة الذاكرية مصحوبة بادراك حسي فوري مختص بها (أي مختص بالادراك الحسي

---

(١) المنع Inhibition وفي غير موضعه ترجمت الكلمة « بالكبت » إنما هذا المصطلح خاص بكلمة Refoulement التي تعتبر النظرية المختصة بعلم النفس التحليلي والتي اكتشفها سيغموند فرويد . والكبت بهذا المعنى هو الاعتراض اللاواعي لتحقيق الميول التي تعتبر محرمة ، وتبقى بعد ذلك في الفكر بشكل مستتر. بينما كلمة « المنع » تعني انخفاض نشاط الخلية العصبية ، العصب العضلي او الخلية المفرزة ، تحت تأثير السيالة العصبية او الهرمون (والهرمون هي مادة تفرزها الغدد الصم وتنشط الأنسجة أو الأعضاء) . وتعني كلمة Inhiber اوقف ، سبب عطلا او ضرراً وتحديدها العلمي : توقيف أو تعطيل عملية متعاقبة فيزيولوجية أو سيكولوجية ، مثلا : من الممكن ان تعطل عملية الهضم وذلك بسبب عامل سيكولوجي ، مثلاً الانفعال الشعوري كالغضب والنرفزة والانقباض الناتج عن حزن أو قلق الخ ..

للغرض الذي يتذكره) . هكذا ، سيتم توافق المحاصرتين (بحيث لا تنتج عن ذلك أية استفادة بيولوجية) . بالاضافة الى ذلك ان الجهاز (و) يرسل دالة من الحقيقة الحسية التي هي كما رأينا ذلك ، مصحوبة بشحنة ناجحة . هذه الحالة من الممكن تصورها بسهولة [1] .

في الحالة الثانية ، تكون شحنة الشهوة الحاضرة ، مصحوبة بادراك حسي بحيث لا يتوافق معها إلا جزئياً وليس كلياً . حان الوقت للتذكير بأن حالات المحاصرة المحسوسية ليست هي أبداً حالات محاصرة للخلايا العصبية المنعزلة ، ولكنها أجسام مركّبة [2] للخلايا العصبية . لقد أهملنا حتى الآن هذه الخاصية ، وآن الوقت لأخذها بعين الاعتبار . لنفترض

---

(١) قدم فرويد لاحقاً لهذه العمليات المتعاقبة وللعمليات المعروفة فيما بعد ، ترجمة مختلفة : « هكذا ان الهدف الأول والأكثر فورية لتجربة الحقيقية (Réalité) لا يتعلق باكتشاف غرض الادراك الحسي الحقيقي المتوافق مع الشيء الذي تم تصوره خيالياً ، ولكن باكتشاف هذا الغرض من جديد ، وبالاقتناع بأنه دائماً هنا. إن التمييز بين الذاتي والموضوعي متعلق بامكانية أخرى للتفكير . إن نسخ الادراك الحسي بهيئة صورة ليس أميناً على الدوام ، ومن الممكن أن يتغير بحكم حالات الحذف أو بحكم تذويب بعض عناصره . ولكن بالتأكيد ، ان شرطاً ضرورياً لتجربة الحقيقية يتعلق بأمر الأشياء التي اكتسبت سابقاً بعض الاشباع الحقيقي وضاعت » . (الانكار ، ١٩٢٥ La Denegation 1925) . في التخطيط الاجمالي Esquisse ، ان وجهة النظر التي ذكرها فرويد تلميحاً في هذه الجملة الأخيرة ، غير مذكورة إلا ضمنياً . لكن المثال الذي يعرضه فرويد في الفقرة حيث يعالج التعرف إلى الهوية بين التصور الذهني والشيء المصور ذهنياً ، هو مثال مختص بالصورة التي يصنعها الولد فيما يتعلق بثدي أمه .

(٢) جسم مركب Complexe ، من اللاتينية كومبلكسوس أي يحتوي على ... بالمعنى الكيماوي : الجسم الناتج عن تجمع جزئيات . بالمعنى النفساني التحليلي (البسيكاناليز) تداعي المشاعر والذكريات اللاواعية ، المزودة بقدرة انفعالية (عاطفية) . إستناداً إلى التفسير البيولوجي المذكور في النص ، التزمت المعنى الكيماوي أي الجسم المركب .

بأن المحاضرة بواسطة الشهوة مرتبطة بوجه عـام بالخلية (أ) الخلية (ب) ، بينما تكون المحاضرة المحسوسية مرتبطة بالخلية (أ) الخلية (ج) وتلك هي حالة عادية جداً ، وأكثر شيوعاً من حالة الهُوّية ، وتستحق عناية خاصة عند دراستها . هنا أيضاً ، ان التجربة البيولوجية تمدنا بأنه من المُخطر تنفيذ تفريغ عندما لا تؤكد الدالات المزودة من قِبل الحقيقية إلا جزءاً فقط من الجسم المركّب وليس الكل . غير أننا نملك وسيلة تغيير المشابهة إلى مطابقة كاملة . لدى مقارنة الجسم المركّب (و) إلى سائر الأجسام المركّبة (و) ، نقدر على تقسيمه إلى جزئين : الخلية (أ) التي تظل بوجه عام شبيهة لذاتها وخلية أخرى (ب) ، التي هي أغلب الأحيان متغيرة . ولهذه العملية المتعاقبة من التحليل تعطي اللغة فيما بعد ، إسم « قدرة التمييز [1] » سيكتشف أيضاً التشابه الموجود بين نواة الأنا والعنصر الدائم للجسم المركّب المحسوسي من جهة ، ومن جهة أخرى ، بين حالات المحاضرة المتبدلة داخل حِاء الدماغ والعنصر غير الثابت الخاص بالجسم المركّب المحسوسي ، (راجع الفصل السابق « التأثرات الأولية وحالات الشهوة ») .

تصف اللغة الخلية العصبية (أ) « كشيء مـا » والخلية العصبية (ب) كنشاط أو مالك هـذا الشيء ، باختصار « كنسبة وصفية » attribut .

تشكل قـدرة التمييز إذن ، العملية المتعاقبة (نَ) بحيث يجعل

---

(١) قدرة التمييز Jugement أو إمكانية الادراك الذي يقارن ويحكم أو قدرة التمييز والحكم إستناداً إلى الحس السليم وعقلانية التحليل . (المترجم)

الأمر ممكناً ، المنعُ وحده الصادر من الأنا ، سبّب ذلك التباين بين محاصرة الذكرى المنطبعة بالشهوة والمحاصرة المحسوسية التي تشبهها . ينتج عن ذلك الأمر التالي : عندما تتم مطابقة المحاصرتين ، تحدث إشارة بيولوجية بحيث تفرض وضع حد نهائي لنشاط التفكير الذي يتوقف لدى حدوث المطابقة .

من الممكن أن تصل العملية المتعاقبة إلى أبعد من ذلك : عندما تكون الخلية العصبية (أ) حاضرة ضمن المحاصرتين ، الحالة المقبّلة والحالة المحسوسية ، تكون الخلية العصبية (ج) مدركة حسياً عوضاً من الخلية العصبية (ب) ، ومجهودات الأنا تتبع إرتباطات هذه الخلية العصبية (ج) ، وبواسطة دَفق الكمية (ك نَ) على طول هذه الارتباطات ، تجرف انبثاق محاصرات جديدة إلى أن تصاب نهائياً الخلية العصبية التي أخطأت (ب) . بوجه عام ، إنها الصورة المحرّكة التي تُدرج بين الخلايا العصبية (ج) و (ب) . عندما تستيقظ هذه الصورة بواسطة تنفيذ حركة واقعية ، تدرك حسياً الخلية العصبية (ب) ويتم ترسيخ الهُوّية المرجوة . لنفترض مثلاً ، الحالة لدى الطفل : إن الصورة الذاكرية المرغوبة هي صورة ثدي الأمومة وصورة الحَلَمتين من الوجهة الأمامية . لنفترض أيضاً بأن هذا الولد الصغير قد بدأ يدرك حسياً الغرض ذاته ، ذكرى التجربة التي عايشها صدفة أثناء الرضاعة ، المتعلقة بحركة خاصة للرأس التي غيّرت المظهر الأمامي إلى مظهر جانبي . إن الصورة الجانبية التي ينظر إليها الآن تحثه إلى تحريك رأسه طالما تعلّم بواسطة التجربة ، بأنه يجب القيام بحركة مقلوبة للحصول على مظهر أمامي .

في هذا المثال ، لا تلعب قدرة التمييز إلا دوراً ضعيفاً ، لكنها تبرز إمكانية الوصول وذلك بتوليد حالات المحاَصرة ، إلى تنفيـذ الفعل ، وهذا الفعل ليس سوى نمط عَرَضي للعمل النوعي .

إنها بلا شك الكمية (ك نَ) الصادرة مـن الأنا المحاَصر التي هي تحتية بالنسبة لهذه المسيرة عـــلى طول الخلايا العصبية المسهّلة frayés إن هذه المسيرة غير موجهة بواسطة التسهيلات frayages ، إنما بواسطة هدف منشود . ولكن ما هو هذا الهدف ؟ كيف السبيل اليه ؟

حسناً ، يتعلق الأمر بالرجوع الى الخلية العصبية المتحلفة (ب) وتحرير إحساس الهُوّية ، أي الرجوع الى اللحظة حيث تكون الحلية العصبية (ب) وحدها محاصرة وحيث تصب المحاصرة المتحركة داخل الخلية العصبية (ب) . ذاك ما يحصل عندما تكون الكميات (ك نَ) متنقلة اختبارياً في جميع الاتجاهات . لأجل هذا الهدف ، إن تصريفاً للشحنة الجانبية حيناً زائد ، وحيناً أقل أهمية ، يصبح ضرورياً وفقاً لامكانيات استعمال التسهيلات الموجودة ، أو وفقاً لاحتياج خوض صراع ضدها . هـــذا الصراع بين التسهيلات الثابتة والمحاصرات المتغيرة تميّز العملية المتعاقبة الثانوية للتفكير المنتِج ، ذاك ما يتناقض مـع التعاقب البَدْئي لحالات التداعي . كيف يـتم اختيار المسيرة ؟ ذلك بحكم بقاء الفكرة المفضّلة مُحاَصرة ما دامت مجموعة أجهزة التداعي ملاحقة انطلاقاً من الخلية العصبية العصبية (ج) . نعـلم بأن محاَصرة الخلية العصبية (ب) تمهّد التسهيل وتسهّل مهمة وصول جميع الارتباطات المتعلقة بها .

أثناء هذه المسيرة ، تصطدم بعض الأحيان الكمية (ك نَ) ببعض

الذكرى المرتبطة بالتجربة المؤلمة ؛ ينتج عن ذلك ، توليد للكدر . يوجد برهان حسي فيما يتعلق بالخلية العصبية (ب) بحيث لا يمكنها أن تصاب بواسطة هذا السبيل ، لذلك ، يتولد بصورة فورية تفريغ للتيار الذي يُبعدها من المحاصرة المذكورة . إن المسالك المؤلمة تحتفظ رغم ذلك بأهميتها الكبرى لأنها تعاير تيار التوالد .

●

الذاكرة وقدرة التمييز

هكذا إن التفكير المنتِج يتجاوب مع الخطة العملية والهدف البيولوجي المحدّد : إنه يهدف إلى إبعاد الكمية (ك نَ) المتحركة عن الادراك الحسي المكدّر لارجاعها إلى المحاصرة الحلوية العصبية المتخلفة. يحصل إذن في آن واحد اكتساب الهُوّية وحق التفريع ، شرطاً أن تقدم الخلية العصبية (ب) دالةَ الحقيقية . لكن بامكان العملية المتعاقبة إهمال الهدف الثاني من هذه الأهداف (أي التفريغ) وبامكانها البحث عن الهوية الوحيدة . ما نجده عند هذه الحالة ليس سوى فعل عقلي بسيط الذي بامكانه الحصول فيما بعد ، على فائدته العملية . بالاضافة إلى ذلك ، إن الأنا المحاصَر يتصرف ، في مثل حالة كهذه ، تماماً بالطريقة ذاتها .

لنفحص الآن الامكانية الثالثة القابلة لتحقيق ذاتها عند حالة الشهوة العنيفة . (فيما يتعلق بالامكانيتين الأولين ، راجع الفصل السابق : التفكير القادر على الادراك والمنتِج) . عندما توجد شحنة للشهوة ، يظهر فجأة الادراك الحسي الذي لا يتوافق البتة مع الصورة الذاكرية المرغوبة (الصورة التي نسميها الذكرى —) . بهذا يصبح الأمر شيقاً لمعرفة هذه

الصورة المحسوسة لاكتشاف رغم كل شيء مسلكاً يؤدي إلى الذكرى ـ ، ربما لأجل هذه الغاية يكون الادراك الحسي بكامله (محاصراً) انطلاقاً من الأنا ، تماماً كما هو الأمر عند الحالة السابقة ، بواسطة عنصر الادراك الحسي الذي يشكل الخلية العصبية (ج) . (راجع الفصل السابق) . عندما لا يكون الادراك الحسي جديداً إطلاقاً ، انه يثير **التذكير** [1] ، **تيقظ** [2] ذكرى إدراك حسي آخر ، بحيث توجد بينهما نقطة مشتركة . إن العملية المتعاقبة التأملية التي ذكرتها سابقاً تتكرر بالنسبة لهذه الصورة الذاكرية ولكن ، عند حد معين ، دون الهدف الذي تولّده الفكرة المقبّلة المحاصرة . إن حالات المحاصرة لدى المطابقة ، لا تزود التفكير مناسبة لممارسة وظيفتها . لكن الأجزاء المختلفة للمحاصرة ، « توقظ الاهتمام » وتقدّم أحياناً لنوعين من النشاطات التأملية مناسبة للظهور والتصرف . عندها ، يمكن للتيار أن يتجه نحو الذكريات المنبثقة من جديد ، وينفّذ نشاطاً ذاكرياً بلا هدف (يكون الحافز وليد التناقضات لا التشابهات) . واما سيركّز اتجاهه نحو العناصر المحسوسة التي ظهرت حديثاً ويحرّك نشاطاً خاصاً بقدرة التمييز المحرومة أيضاً من الهدف .

لنفترض أن الغرض المدرك حسياً هو متشابه (للفاعل الذي يدرك حسياً) أي للكائن البشري . إن الأهمية النظرية التي يثيرها تفسَّر أيضاً بواسطة الأمر التالي : انه **الغرض من ذات المرتبة** الذي جلب للفاعل اشباعه الأول (وكدره الأول أيضاً) وكان بالنسبة له القدرة

---

(١) التذكير Rappel .

(٢) تيقظ Reviviscence (تيقظ الحالات الوجدانية المنسية أو المستبعدة).

الاولى . إن يقظة المعرفة هـي وليدة إذن الادراك الحسي للغير . إن العُقد النفسية المحسوسية المنبثقة ، هـي جديدة جزئياً ، ولا تقارَن بشيء آخر – مثلاً سمات الشخص المذكور (في النطاق البصري) ، لكن مدارك حسية بصرية أخرى (مثلاً حركات اليد) تذكّر الشخص بالانطباعات البصرية التي سبّبتها حركات يده بالذات ، الانطباعات التي ستشاركها ذكريات حركات أخرى . هكذا ، عندما يصرخ ذلك الشخص ، يتذكر الفاعل صرخاته هو بالذات ، ويرى من جديد تجاربه الخاصة المؤلمة . إن العقدة النفسية للغير تنقسم إذن إلى قسمين ، أحدهما يعطي انطباعاً شكلياً دائماً ويظل 'كلاً متجانساً ، بينما الآخر من الممكن أن 'يدرك بفضل نشاط ذاكري ، أي منسوب إلى تبليغ بحيث يقوم بتوصيله له جسم الفاعل بالذات [1] . هذا التحليل للعقدة المحسوسية قد وصف بالتمييز [2] ، إنه يفرض قدرة التمييز وينتهي مع هذه الحالة الأخيرة . نلاحظ بأن قدرة التمييز لا تشكل عملية متعاقبة أولية

---

(١) هذه الآراء بالنسبة الى اسس فهم وادراك اعمال الغير التعبيرية ، غير مذكورة بنفس الطريقة التي التزمها فرويد في مؤلفاته اللاحقة . في فصل من كتابه، حول «الخاطرة المبدعة وعلاقاتها بالوجدان اللاواعي» ، يعرض فرويد فرضية بحيث تكون الذكرى المتعلقة بصرفه الخاص للطاقة الوسيلة التي تساعد الفرد لفهم الفن الايمائي وحركات الآخرين. ابحاث حديثة حول التصور الجسدي (أي الصورة التي يكونها الشخص عن ذاته Schéma corporel) افسحت المجال لالقاء ضوء جديد على معطيات فرويد هذه . راجع بول شيلدر ١٩٤٢ . (Schilder). بالنسبة للعلاقات بين الاتصالات الجسدية الباكورية جداً وإثبات الشخصية، راجع كريس ١٩٥٢ Kris .

(٢) تمييز ذكريات بالنسبة الى الزمان الماضي Reconnaissance يفرق بين تداعي الذكريات وتمييزها بالماضي وتموضعها (قاموس الكنز) On distingue l'érvcation, la reconnaissance et la localisation des souvenirs .

وتفترض مسبقاً محاصرة للجزء المتباين (غير قابل للمقارنة) للعقدة ، محاصرة صادرة من الأنا . إن حالة الحكم لا تفرض أولاً أي هدف عملي ويبدو بأنه ، عند حالة قدرة التمييز ، تكون محاصرة العناصر المتباينة مفروغة تقريباً ، ذاك ما يفسر لماذا لا تتصل النشاطات ، « المحمولات » بالعنصر « الذاتي » إلا بواسطة مسلك محدد بصورة سيئة .

كل ذلك يساعدنا على تحليل بصورة أعمق حالة قدرة التمييز ، لكنه يُبعدنا كثيراً عن موضوع مبحثنا .

لنكتفي بالقول بأن الفائدة الأصلية (للفاعل) لاقامة موقف ممتع ، تولّد حيناً تفكيراً تأملياً منتجاً وحيناً قدرة للتمييز ، فهي وسائل المرور من موقف واقعي مُدرك حسياً إلى موقف مرغوب . كي يتم ذلك ، لزم اطلاقاً أن تكون العمليات المتعاقبة (نَ) قد تكدرت وأن تظل خاضعة لتأثير الأنا . إن المفهوم العملي المطلق لكل نشاط فكري قد بات مبرهناً ، على هذا المنوال .

التفكير والواقعية

إن هدف ونهاية جميع العمليات المتعاقبة التأملية هو إذن إنشاء حالة من الهُوّية ، نقـل الكمية المحصورة (ك نَ) الآتية من الخارج ، إلى خلية عصبية محاَصرة بواسطة الأنا . إن التفكير القادر على الادراك أو قدرة التمييز يحاولان الاندماج في المحاَصرة البدنية ، يميل التفكير المنتِج نحو الاندماج في المحاَصرة النفسية (التجربة التي عاشها الفاعل) . إن التفكير التأملي (jugeante) يسبق التفكـير المنتِج ويضمن له لأجل مسيرات أخرى مـــن حالات تداعي الأفكار ، تسهيلات محضّرة كلياً لذلك ، عندما تتوصل دالة الواقع إلى نيل الادراك الحسي ، بعد نهاية العمل التأملي ، عندها يتم حدوث تقدير للواقع ، الايمان ، وبهـذا كل نشاط ينال هدفه .

لم يعد بالامكان التحدث عن قدرة التمييز التي يـتم تأسيسها بالطبع على تجارب بدنية ، وحواس وصور محرّكة خاص بالشخص الفاعل ، ما دامت هذه الحالات ناقصة ، لا يمكن إدراك الجـــزء المتغير للعقدة المحسوسية . نستطيع في الواقع توليده ولكن من غير أن يعطي توجيهات تعليمية جديدة لاتجاهات سلوكية أخرى خاصة بالتفكير . مثلا – وهذا

واقع سنلمس أهميته فيما بعد ـ طالما الشخص الفاعل لا يشعر بأي إحساس جنسي ، أي بوجه عام ، حتى بداية سن المراهقة ، لا تشكل تأثيراً ، أية تجربة جنسية .

يبدو بأن قدرة التمييز الأولية ، تفرض أقل درجة من فعالية الأنا الحاَصر بالنسبة للتفكير المنتِج . مع أنـــه من الممكن حدوث حالة ترابطية بحكم التطابق الجزئي (بـين حالات الحاَصرة للشهوة والحالات المحسوسية) ومن الممكن أن لا تُدرك حاجةُ التعديل ، غير أنه توجد حالات حيث تكون الكمية بأسرها مستعملة في العملية المتعاقبة الترابطية الخاصة بقدرة التمييز . نستطيع القول بأن الادراك الحسي يتناسب مع الغرض النووي زائد الصورة المحرّكة . مع إدراكنا الحسي للجهاز (و) ، اننا نفقد الحركات ، أي أننا نعصب [1] صورته المحرّكة الخاصة (التي تتطابق مـــع الادراك الحسي) إلى أن تولّد الحركة بصورة واقعية . بهذا ، أمكن التحدث عـن « القيمة المماثلة » للادراك الحسي (راجع القسم الثالث من هذا الكتاب) . وأيضاً ، يمكن أن يثير الادراك الحسي الصورة الذاكرية للاحساس المؤلم الذي يشعر بـه الشخص الفاعل ، إلى درجة أنه يشعر بالكدر المتوافق ويكرر الحركات الدفاعية المتناسبة . نسمي تلك الحالة « بالقيمة الودية » للادراك الحسي .

هاتان الحالتان تظهران لنا بالتأكيد **العملية المتعاقبة الأولى** التي يتم حدوثها أثناء قدرة التمييز ونعتقد بـــأن جميع حالات قدرة التمييز

---

(١) أعصب : زود بعصب Innerver (والإعصاب هو طريقة توزع العصب في العضو).

الثانوية يتم تنفيذها بفضل تخفيف هذه العمليات المتعاقبة الترابطية المحْضة . إذن ، إن حالة قدرة التمييز (التي تصبح فيما بعد الوسيلة للتعرف إلى غرض من الممكن أن يملك بعض الأهمية العملية) هذه الحالة ، تشكل عند المنشأ ، العملية المتعاقبة الترابطية بين بعض حالات المحاصرة الآتية من الخارج وسواها من الحالات الصادرة من جسم الشخص الفاعل ، مطابقة بين معلومات أو حالات من المحاَصرة آتية من الجهـــاز (د) ومن الداخل . جاز لنا الافتراض بأن قدرة التمييز تساعدنا أيضاً على رؤية كيفية نقل وتفريغ الكميات الآتية من الجهاز (د) ونعني « بالأغراض » عواقب المرض التي لا تطالها قدرة التمييز Reliquats .

إن مثال قدرة التمييز يدفعنا الى الاعتقاد بأنه يوجد فرقٌ كميّ بين التفكير والعملية المتعاقبة الأولية . من المعقول أن نفترض بأنه ينبثق من الجهاز (نَ) لدى عملية التفكير ، تيار خفيف من الإعصاب المحرّك ، ولكن فقط ، في حـــال وجود خلية عصبية محرّكة أو خلية عصبية أساسية ، مزودة بعصب أثناء هذه العملية . ولكن ، من الخطأ خلط هذا التفريغ بالعملية المتعاقبة التأملية بالذات ، إذ أن التفريغ هذا ، ما هو الا نتيجة غير مرتقبة وملحقة . تتضمن العملية المتعاقبة التأملية محاَصرة للخـلايا العصبية (نَ) مصحوبة بتعديل محمول الى التسهيلات الاجبارية ، وذلك بحكم محاَصرة جانبية ناتجة عن الأنا .

من الناحية الآلية نعلم بأنه يوجد عند هذه العملية المتعاقبة ، جزء فقط من الكمية (ك نَ) قادر على متابعة المسالك المسهّلة وبأن هـذا الجزء معيَّرٌ بواسطة المحاَصرات بصورة دائمة ، وذاك أمر مهم . ولكن نرى بوضوح أيضاً ، بأنه بحكم هذه الطريقة ، يوجد في نفس الوقت ،

اقتصاد للكمية (ك نَ) الكافية ، كي يجعل من التوليد أمراً نافعاً . وإلا ، عند حالة مختلفة ستنفق كل الكمية (ك نَ) الضرورية للتفريغ النهائي ، أثناء مسيرتها ، عند نقاط المنفذ المحرّك . إن العملية المتعاقبة الملحقة هي إذن تكرار للظاهرة الحسية الأصلية لحالة التهيج عند الجهاز (نَ) ، ولكن عند مستوى أقل ارتفاعاً ومع كميات أقل .

ولكن ، ماذا سيحل بالكميات الأضعف من الكميات التي تجتاز الخلايا العصبية (نَ) بصورة طبيعية ؟ هل سيحصل مثل هذا التساؤل ؟ كيف تتوصل هذه الكميات (ك نَ) الضعيفة جداً ، الى المرور من مسالك حيث لا تنساب إلا كميات تفوق الكميات التي يتلقاها عادة الجهاز (نَ) ؟ هناك جواب واحد مقبول لزم أن تكون هذه الامكانية النتيجة الآلية للمحاصرات الجانبية . ونختم قائلين : عندما توجد محاصرة جانبية ، تمر كميات ضئيلة (ك نَ) خلال التسهيلات بحيث لا تستطيع اجتيازها فقط ، إلا الكميات المهمة جداً وبصورة طبيعية . إن المحاصرة الجانبية ، تضم ، إذا جاز القول ، جزءاً معيناً من الكمية (ك نَ) وهي تجتاز الخلية العصبية .

إن التفكير خاضع أيضاً لشرط آخر . لا يجب تحديد أي تعديل أساسي في التسهيلات التي ثبّتتها قبلاً العملية المتعاقبة الأولية ، وإلا ستكون مشوهة ، تلك الآثار التي خلّفها الواقع الحسي . يكفي القول في هذا الصدد ، بأن التسهيل ناتج على الأرجح ، من المرور الوحيد ، للكمية المهمة وبأن المحاضرة ، رغم أنها قديرة جداً عند لحظة الفعل ، لا تخلّف وراءها تأثيرات مستديمة . إن الكميات (ك) الضئيلة التي تمر أثناء العملية المتعاقبة التأملية ، لا تتفوق بعامة على التسهيلات .

رغم كل شيء ، من المؤكد بأن العمليات المتعاقبة التأملية تتخلى عن آثار باقية . إن تفكيراً ثانياً يكلفنا بالطبع مجهودات أقل من التفكير الأول . كي لا يكون الواقع الحسي مشوهاً ، لزم بقـاء آثار خاصة (وآلات العمليات المتعاقبة التأملية) . إنها تشكل « الذاكرة التأملية » شيئاً ما ، غير ممكن وصفه أيضاً كصيغة . سنرى كيف سنميز وبأية طريقة ، آثار العمليات المتعاقبة التأملية عن آثار الحقيقية [1] .

---

(١) أنظر إلى القسم الثالث من هذا الكتاب .

العمليات المتعاقبة الاولى
النوم والنعاس

لنتساءل الآن من أي منشأ تنبع عوامل الكمية التي تفسح المجال للعمليات المتعاقبة الأولية (نَ) للقيام بعملها . عند حالة **التجربة المؤلمة** ، يكون هذا المنشأ بالطبع الكمية (ك) الصادرة من الخارج ، عند حالة **التأثرات الأولية** ، توجد كمية متحررة بواسطة التسهيل ، عندما يتعلق الأمر بالعملية المتعاقبة الثانوية **للتفكير المنتِج** ، من الممكن أن توجد كمية كبيرة نوعاً ما ، منقولة من الأنا إلى الخلية العصبية (ج) ، ذاك ما يمكن تسميته « بالاهتمام التأملي »[1] . إنها متناسبة مع « الاهتمام العاطفي » في الموضع حيث أمكن لتلك الحالة أن تنمو وتتطور . بكل بساطة ، يتعلق الأمر بمعرفة الحالة التالية : هل توجد عمليات متعاقبة (نَ) ذات خاصية أولية حيث تكون الكمية (ك نَ) الناتجة

---

(١) يبدو بأن عبارة « اهتمام تأملي » Intérêt cogitatif قد اختلطت مع المصطلح « انتباه » المذكور في موضع لاحق وفي القسم الثالث من هذا الكتاب حيث يدرس فرويد هذا الموضوع بشكل أعمق .

عن الجهاز (نَ) كافية أو هل تضاف تلقائياً مساعدة الجهاز (نَ) الخاص (أي الانتباه) عند المحاَصرة (و) للادراك الحسي . إن هذه المساعدة وحدها تجعل من العملية المتعاقبة (نَ) أمراً ممكناً . إن المسألة غير محلولة ، ربما سيوجد حل لذلك ، إذا استندنا إلى بعض الوقائع السيكولوجية الخاصة .

لنفحص أحد هذه الوقائع المهمة : توجد بين العمليات المتعاقبة الأولية (نَ) ، عمليات قد ألغيتْ تدريجياً بواسطة الضروريات البيولوجية أثناء تطور الجهاز (نَ) ، وتتبين لنا يومياً خلال أحلامنا . يوجد واقع ثان ، يضاهي الأول أهمية وهو أن سير أجهزة الجسم الباتولوجي المعلنة بواسطة تحليل دقيق جداً خاص بالاضطرابات النفسية العصبية [1] ، يملك مع العمليات المتعاقبة الحُلمية أكبر مقدار من التشابه . نستطيع أن نستنتج من هذا التماثل [2] نتائج ذات أهمية رئيسية . سنتحدث عن ذلك مرة ثانية في الفصل التالي « تحليل الأحلام » [3] .

---

(١) الاضطرابات النفسية العصبية Psychoneurosis (بسايكونوروزيس) أي الاعتلال العصبي الناتج أصلاً عن نفسية مضطربة أو عن عوامل عقلية التي هي عادة بلا أعراض عضوية أو مستقلة عنها ، نذكر بعض هذه الأعراض : الاكراه ، الهواجس ، الرهاب ، القلق الخ ... (الرهاب أو الفوبيا : هلع مرضي من شيء معين أو طائفة معينة من الأشياء Phobia) . (الهاجس: فكرة تستبد بالمرء على هذا النحو المقلق غير السوي. Obsession) (قاموس المورد) .

(٢) التماثل Parallélisme فهذا هو المعنى المجازي ، أما المعنى الثاني : نظرية التوازي ، مفادها تلازم العمليات العقلية والجسدية . استناداً إلى النص ، التزمت المعنى الأول .

(٣) راجع كتاب « تفسير الأحلام » . يبدو بأن فرويد لم يعد يهتم بالاكتشاف الذي يذكره هنا تلميحاً، وهو « التشابه » بين العملية المتعاقبة الحلمية وسير الأجهزة النفسية العصبية، ولا يكتشف ذلك من جديد إلا عند بداية عام ١٨٩٩ « الرسالة ١٠٥ » .

ولكن من المستحسن ضم أولاً ضمن نظريتنا مسألة النوم . إن ما يحدد أساساً النعاس يظهر لدى الأطفال بصورة واضحة . يستمر الأطفال في النوم ما دامت لا تزعجهم حاجاتهم الجسدية أو المنشطات الخارجية (مثلاً الجوع ، الأحاسيس بالبرد عندما يبلّلون سريرهم) . ينامون ، عندما تكون رغباتهم مشبعة (بواسطة الثدي) . كذلك الراشد ينام بسهولة post cœnam et coitum . ينتج عن ذلك الأمر التالي : إن نقصاً للشحنة الداخلية النكوّن في النواة (نَ) ، يكيّف النوم ، مثل هذا النقص يجعل من المهمة الثانوية أمراً غير نافع . عندما ينام الشخص ، يجد نفسه في حالة سكونية مثالية بينما الاحتياطي من الكمية (كـ نَ) قد تم تفريغه . عند حالة اليقظة ، يتراكم هذا الاحتياطي « داخل الأنا » ونذهب إلى الاعتقاد بأن ما يكيّف بالضرورة ويميّز النوم بطابع معيّن ، هو بالضبط هذا التفريغ للأنا . نلاحظ على الفور بأن **الأمر متعلق هنا بشرط ضروري لتوليد العملية المتعاقبة النفسية الأولية .**

لا نستطيع تأكيد الأمر التالي : لدى الراشدين النائمين ، يكون الأنا متحرراً كلياً من شحنته . على أي حال ، إنه ينتزع عدداً كبيراً من محاصراته التي تعيد توازنها على الفور وبلا صعوبة عند اليقظة . هذا الواقع لا يناقض أياً من فرضياتنا لكنه يقودنا نحو الافتراض بأن بعض التيارات التي تؤثر بفعالية على مجموع مستوى (المحاصرات) ، لزم أن تنساب بين الخلايا العصبية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، كما هو الحال لدى القنوات المتصلة – مع أن علو المستوى لدى الخلايا العصبية المختلفة غير متشابه بالضرورة ، لكنه متناسب فقط . (راجع القسم الثالث) .

إن خاصيات الحُلم تكشف عن بعض الأشياء، يستحيل التنبؤ بها.

يتميز النوم **بشلل محرّك** [1] ، **شلل الارادة** [انظر إلى الفصل التالي : « تحليل الأحلام »] . تتضمن الارادة تفريغاً للكمية الكاملة (ك ن) للجهاز (نَ) . عند النوم ، يُخلى سبيل الحَظْربة النخاعية [2] بصورة جزئية (يبدو على الأرجح بأن التفريغ المحرّك (و) يتبين في الحظربة . حالات أخرى من الإعصاب تدوم ، كذلك مصادرها الخاصة بالتهيج) .

واقع شيّق للغاية : تبدأ حالة النوم وتجد نفسها وقد أثيرت بواسطة إغلاق الأعضاء الحواسية التي بإمكانها أن تكون مغلقة . أثناء النوم ، لزم إلغاء كل إدراك حسي . إذ ، لا شيء يزعج النوم مثل الانطباعات الحواسية ، حالة المحاَصرة الآتية من الجهاز (و) مخترقة الجهاز (نَ) . ويبدو بأن شحنة ثابتة ، رغم أنها متحركة (الانتباه) قد ترسل داخل الخلايا العصبية الخاصة بلِحاء الدماغ حيث يجلب إليها الجهاز (نَ) المدارك الحسية . إذن ، من الممكن جداً أن يتم تنفيذ العمليات المتعاقبة الأولية (نَ) بسبب هذه المساهمة للجهاز (نَ) . (نجهل أيضاً إذا كانت الخلايا العصبية الخاصة بلِحاء الدماغ بذاتها أو الخلايا النووية الملاصقة التي هي محاَصرة مسبّقاً . عندما يسحب الجهاز (نَ) حالات

---

(١) محرك Moteur يعرف بذلك العصب أو العضلة التي تضمن القوة المحركة لعضو جسمي ما ، مثلا : الأعضاء المحركة المختصة بالعينين .

(٢) الحظربة النخاعية Tonusspinal حظربة أي حالة تقلص العضلات الدائم والجزئي Tonus .

المحاَصرة هذه الخاصة بلِحاء الدماغ ، عندها تصل المدارك الحسية إلى الخلايا العصبية غـير المحاَصرة ، تظل ضعيفة وربما تكون غير قادرة على التزويد بدالة النوعية [1] . كما ذكرنا ذلك ، يصل إعصاب التفريغ الذي يضاعف الانتباه ، إلى نقطة التوقف ، في نفس الوقت حيث يتم إفراغ الخلايا العصبية للادراك الحسي . يبدو بأننا أدركنا هنـا المسألة المُلغزة للتنويم المغناطيسي . يبدو أن عدم الحساسية الظاهرة ، في هذه الحالة ، للأعضاء الحواسية ، ترتكز على انسحاب المحاَصرة إلى الانتباه .

هكذا ، إن سيْر الجهاز التلقائي المعكوس المتعلق بالانتباه (نَ) ، يحذف الانطباعات (ك) ما دام هو بذاته غير محاَصر .

ولكن من المدهش حقاً هـــو الأمر التالي : أثناء النوم ، تجري العمليات المتعاقبة (نَ) : الأحلام ، بحيث يبقى الكثير من الخاصيات غير مفهوم .

---

(١) في الطبعة الألمانية ، تم طبع الكلمة « كمية » خطأ ، عوضاً من طبع كلمة « نوعية » .
(آن برمان Anne Berman)
وبرمان هي مترجمة هذا الكتاب من الألمانية إلى الفرنسوية عام ١٩٦٩ .

تحليل الاحلام

رغم أننا نكتشف في الأحلام جميع درجات الانتقال نحو حالات اليقظة وجميع أنواع التراكيب مع العمليات المتعاقبة الطبيعية [1] (نَ) ، فيمكن استخلاص خاصياتها الأساسية بسهولة .

١) إن الأحلام مجردة من التفريغ المحرّك وأغلب الأحيان من العناصر المحرّكة . فتصاب بالشلل .

إن أبسط تفسير لهذا الواقع ، يرتكز على غياب المحاَصرة المسبّقة النخاعية بحكم إلغاء التفريغ (و) . لا يقدر لهذا التهيج المحرّك على اجتياز الحواجز ما دامت الخلايا العصبية غير محاَصرة . يمكن حدوث حركة ، عند حالات أخرى مجاورة للحلم . بهذا ، لا يستحسن البحث هنا عن خاصية أساسية للحلم .

---

(١) الطبيعية Normal أي استناداً إلى ميدان علم النفس ، التكيف مع العالم الخارجي ، حالة طبيعية أي حالة لا تتضمن جهود عقلية غير ملائمة . (قاموس كولبير – المجلد الثاني) .

٢) عند الحلم ، تكون الارتباطات متنافرة جزئياً ، ومبرّرة بضعف جزئياً ، وأحياناً تكون غير معقولة بصورة غريبة .

فهذه الخاصية الأخيرة هي وليـدة إكراه المشاركة التي تسود في الأحلام ، كما يحصل ذلك بلا أي شك ، بشكل أولي في كل الحيـاة النفسية . يبدو بأنه حصل ارتباط بـــين محاصرتين حاضرتين بصورة فورية [١] . جمعتُ عدة أمثلة مسلية ذات هيمنة ، فيما يتعلق بهذه الحاجة (مثلاً في فرنسا ، حضر بعض القرويين جلسة في مجلس النواب ، فألقيت قنبلة ، فكانت النتيجـة أن أصبح يطلق الرصاص كل مرة يلقي نائب خطاباً بليغاً ، تأييداً له) [٢] .

إن الخاصيتين الأخريين المتشابهتين ، تظهران بأن قسماً من التجارب النفسية الخاصة بالحالم قد غرقت في النسيان . في الواقع ، لقـــد نسي الشخص جميع التجارب البيولوجية التي تعرقل بعامـة العملية المتعاقبة الأولية ، وذلك ناتج عن محاصرة غير كافية للأنا . إن الخاصية المحالة وغير المعقولة للأحلام منسوبة بوجـه الاحتمال إلى نفس الواقع الحسي . كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن المحاَصرات (نَ) التي لم تُلغَ ، تجد

---

(١) أكد فرويد على هذا الواقع في ملاحظة طويلة قد أضيفت إلى تاريخ إيمي فون ن ... ، بتاريخ ١٤ أيار ، في كتابه « دراسات عـن الهستيريا » (١٨٩٥) . وقـد ذكر ذلك مرة ثانية في الفصل الخامس من كتابه « تفسير الأحـــلام » عام ١٩٠٠ . (تم طبع الكتاب « دراسات عن الهستيريا » باللغة العربية عام ١٩٥٧ في دار محيو) .

(٢) استعان فرويد بهـذه الأمثلة في كتابه « تفسير الأحـلام » صفحة ٤٢٦ (في الترجمـة الفرنسوية) ووصفها « كمجهودات هادفة إلى نقل الانطباعات الحواسية الـتي ندركها ، إلى المجال المعقول » .

توازنها جزئياً ضمن التسهيلات الأقرب إليها ، ونجد ذلك جزئياً ضمن المحاصرات المجاورة . عندما يتم تفريغ الأنا كلياً ، يصبح النوم مجرداً من الأحلام .

٣) عند الأحلام ، تملك التصورات خاصية هلوسية ، إنها توقظ الحالة الوجدانية الواعية وتثير الاعتماد .

لزم النظر إلى الخاصية الأكثر أهمية للنوم . تصبح على الفور مؤكدة في حال وجود تعاقب بين النوم وحالات اليقظة . نغمض العينين فتتولد حالات الهلوسة . نفتحها ثانية ونترجم أفكاره بكلمات [١] . نفسر بطرائق مختلفة الخاصية الهلسية للمحاصرات الحلمية . نستطيع أولاً أن نفترض بأن التيار المتجه من الجهاز (ك) إلى قدرة التحرك [إلى حالة اليقظة] يتصرف على طريقة حاجز منتصب ضد كل محاصرة عكسية للخلايا العصبية (ك) ، انطلاقاً من الجهاز (نَ) . ولكن لا شيء يمنع من الاعتقاد بالأمر التالي : لدى انقطاع التيار ، يكون الجهاز (ك) محاصراً بصورة عكسية ، عندما ستوجد كل الشروط المطلوبة لأجل توليد خاص بالنوعية [٢] . يمكن إثارة اعتراض واحد بخلاف هذه الفرضية : لزم أن تكون الخلايا العصبية (ك) محمية ، بحكم حالتها غير المحاصرة (تماماً كما هو الحال عند قدرة التحرك) ، ضد

---

(١) « تفسير الأحلام » الفصل الاول .

(٢) هذا التفسير الخاص بالتناقص في الاحلام ذكر مرة ثانية وانتقد في الفصل السابع من كتاب « تفسير الاحلام » .

أية محاَصرة صادرة من الجهاز (نَ) . من خاصية النوم ، قدرته على قلب كل الموقف : إنه يوقف التفريغ المحرّك للجهاز (نَ) ويجعل من التفريغ العكسي نحو الجهاز (ك) ، أمراً ممكناً . هنا ، نميل إلى إسناد دور محدّد ، أثناء حالة اليقظة ، إلى التيار الكبير للتفريغ المتجه من الجهاز (ك) إلى قدرة التحرك . من ناحية ثانية ، نستطيع فحص طبيعة العملية المتعاقبة الأولية وذلك بالتأكيد على أن الذكرى الأولية للادراك الحسي هي هلوسة على الدوام وعلى أن المنع وحده الصادر من الأنا يفيدنا بعدم محاصرة الجهاز (و) بحيث يفسح له المجال بالنقل العكسي لهذه المحاَصرة إلى الجهاز (ك) . تبدو لنا هذه الفَرضية أشد احتمالاً للتصديق لمّا نعتبر بأن التوصيل من الجهاز (ك) إلى الجهاز (نَ) ، أسهل من التوصيل من (نَ) إلى (ك) . ينتج عن ذلك بأن المحاَصرة (نَ) للخلية العصبية ، حتى لو كانت أشد بكثير من محاصرتها المحسوسية ، ذلك لا يستوجب بالقوة توصيلاً عكسياً . يكون هذا التفسير مؤكداً بحكم الأمر التالي : عند الأحلام ، تكون حيوية الهلوسة متناسبة بصورة مباشرة مع أهمية التصور المذكور (أي متناسبة مع المحاصرة الخاصة بالنوعية) . نلاحظ هكذا بأن الكمية (ك) تكيّف الهلوسة . عندما يصدر ، عند حالة اليقظة ، إدراك حسي من الجهاز (و) ، إن المحاصرة (نَ) تجعله أكثر وضوحاً وتمييزاً ولكن ليس أكثر حيوية ، ولم يحصل تعديل لخاصيته المتعلقة بالكمية .

٤) يمكن تحديد هدف ومدلول الأحلام (على الأقل الأحلام الطبيعية

منها) بصورة أكيدة . إن الأحـــلام هي منجزات للرغبة (١) ، أي للعمليات المتعاقبة الأولية الـتي تعقب بعض الوقائع الحسية الممتعة التي تعيشها . إذا لم يتعرف اليها الحالم على هذا الشكل ، ذلك بخاصة بسبب ضعفها المتعلق بانتاجها الخاص بالمتعة (الخـــاص بتوالد حالات التفريغ الممتعة) . إنها بالطبع ، معرّاة بعامة من التأثر الأولي (من غير ردود فعل محرّكة) . لكن يسهل البرهنة بأن طبيعتها الخاصة هي هكذا ، على هذا المنوال ، وذلك السبب بالذات minfitéa يدفعني إلى الاعتقاد بأن المحاصرات بواسطة الرغبات الأوليـــة تملك هي أيضاً الخاصية الهلسية .

٥) يجب ذكر أيضاً القصور الذاكري في الأحـلام كذلك الأضرار الطفيفة التي تسببها ، بالمقارنة إلى سواها من العمليات المتعاقبة الأولى . إن تفسير ذلك لأمر بسيط . تتبع الأحلام بعامة التسهيلات القديمة ولا تثير هكذا أي تعديل . إن الأحـــداث الطارئة (نَ) لا تؤثر عليها وبحكم الشلل المحرّك ، فانها لا تترك وراءها أي أثر للتفريغ .

٦) واقع آخر يستحق التأكيد عليه : إن الوجدان الواعي يفيدنا حول النوعية الموجودة في الحلم بسهولة مشابهة لحالة اليقظة ، هـذا ما يبين بأن الحالة الوجدانية الواعية غـير محددة عند الأنا ولكن بإمكانها

---

(١) توصل فرويد إلى هذه النتيجة Les rèves sont des realisations de desir (تموز ١٨٩٥) (راجع الرسالة ١٣٧) ، وذلك بعد تفسير الحكم المتعلق « بالعدوى الخاصة بإيرما » . يبدو بأن تحليل هذا الحلم لم يكن مرتبطاً بعد بتحليله الذاتي ، كان يرتكز الحلم على الحركية أو الديناميكية وليس على الوراثية (genetique) .

أن تتعلق بأية عملية متعاقبة (نَ) . هكذا بتنا نلـــتزم الحذر ضد مجازفة تحديد نوعية العمليات المتعاقبة الأولية بعمليات متعاقبة لا واعية . نجد هنا دلالتين لا تُثمنان بشأن ما سوف يُتبع .

عندما توجد ذكرى الحـــلم ونستدعي الوجدان الواعي للتعرف على المحتوى ، نكتشف بأن مدلول الأحلام بصفتها منجزات للرغبة ، مقنعٌ بعدد معين من العمليات المتعاقبة (نَ) جميعها حاضرة داخـل حالات النيفروز وتبين الطبيعة الباتولوجية لهذه الاضطرابات [1] .

---

(١) راجع المناقشة المتعلقة بالحلم الخاص بعدوى إيرما في كتاب تفسير الاحلام (صفحة ١٠١ في الكتاب المترجم إلى الفرنسوية) .

الوجدان الواعي في الحلم

إن الوجدان الواعي المختص بالتصورات الحُلمية متقطعٌ أصلاً . ليست السلسلة بكاملها لحالات التداعي الذهنية ، تصبح واعية وجدانياً ، ولكن فقط بعض العناصر المنفصلة والمتعلقة بها . بين هذه العناصر توجد حلقات سلسلة واقعة في الوسط غير واعية وجدانياً والتي نكتشفها بسهولة عند حالة اليقظة . عندما نحاول تفسير حالات الانقطاع هـــذه ، هاك ما نجده : لنفترض أن (أ) تمثل التصور الحلمي الذي أصبح واعياً وجدانياً والذي يؤدي نحو (ب) . ولكن ، بـدلاً من (ب) ، تظهر (ج) في الوجدان الواعي ، لأنهـــا توجد على الدرب بين (ب) ومحاصرة أخرى (د) الحاضرة في آن واحـد . إن التلهية الناتجة إذن ، هي وليدة المحاصرة المتواقتة المختلفة ، التي هي غير واعية وجدانياً . (ج) حلّت محل (ب) رغم أن (ب) تتطابق بصورة أفضل مـع سلسلة الأفكار ، أي مع تنفيذ الرغبة .

لنفحص حلماً ، مثلاً المتعلق بـ و ... حيث قدّم لإيرما حَقنة من

البروبيل[1] (أ) . ثم أرى أمامي بوضوح تام صيغة « التريميتيلامين » (ج) (C) Triméthylamine . في الوقت ذاته ، أعتقد بأن مرض إيرما هو ذو طبيعة جنسية (د) . بين هذه الفكرة وفكرة البروبيل توجد فكرة (ب) مترابطة بينهما ، فكرة الحوار مع (ويلهلم فليس) المتعلق بالكيمياء الجنسية ، وبصورة خاصة بالتريميتيلامين . من هذه الفكرة الأخيرة تصبح واعية وجدانياً بفضل دفعة آتية من جهتين . حدث مدهش : لا حلقة السلسلة الواقعة في الوسط (الكيمياء الجنسية) [ب] ولا الفكرة المنحرفة (الخاصية الجنسية للمرض) [د] ليستا واعيتين وجدانياً . هذا الواقع بحاجة إلى تفسير . أمكن الافتراض بأن محاصرة (ب) أو (د) لم تكن قوية كفاية لتوليد هَلوسة متراجعة ، لكن (ج) وهي محاَصرة من جهتين ، قادرة على توليدها . غير أنه بالنسبة للمثال الذي ذكرته ، ان (د) [الخاصية الجنسية للمرض] هي بالطبع قوية مثل (أ) [حَقنة البروبيل ، ويبدو بأن (ج) [الصيغة الكيماوية] المشتقة من الاثنتين ، ممتلئة حيوية .

إن مشكلة حلقات السلسلة الواقعة في الوسط وغير الواعية ، تُطرح أيضاً للفكرة وهي في حالة اليقظة حيث وقائع متشابهة يتم تحقيقها يومياً . إنما ما يميّز الحلم هو **الانتقال السهل للكمية (ك نَ)** التي يتم تحقيقها والطريقة حيث تحل (ج) محل (ب) التي هي (اي ج) تتفوق عليها من حيث الكمية .

---

(١) بروبيل : الجذر الأحادي التكافؤ C3H7 المنشق من البروبان .

Propyl : The univalent radical C3 H7 derived from propane. (collier)

وبشكل عام ، يتشابه الأمر فـــيما يخص التحقيق الحُلمي المتعلق بالشهوات لا يتم فيما بعد حدوث التحقيق الهلوسي للشهوة الواعية . ستكون هذه الحالة الأخيرة وحدها واعية وجدانياً ، ولزم أن تكون حلقة السلسلة الواقعة في الوسط (الشهوة) مستدّلة[1] . لقد تم بالطبع توليد هذه الشهوة ولكن من غـير أن تتخذ شكلاً نوعياً . هناك أمر مؤكد : لا يمكن لمحاصرة تصور الشهوة في أية حال ، أن تكون أقوى من الدافع الذي أثارها . لهذا السبب ، عند الأحلام يتم توليد المجرى النفسي للتهيج بمقتضى الكميـة (ك) ، ولكن ليس استناداً إلى ذلك يتم الادراك الواعي .

إن العملية المتعاقبة الحلمية تسمح لنا بالاعتقاد بأن الحالة الوجدانية الواعية يتم تحقيقها أثناء مرور الكمية (ك نَ) ، وليست إذن وليدة المحاصرة الثابتة . ذلك ما يجعلنا نشك لاحقاً بالامر التالي : إن التيار الشديد للكمية (ك نَ) لا يفسح المجال لحالة الاستدراك الوجداني ، ما دامت هذه الحالة الاخيرة مرتبطة بعاقبة هـــذا التيار ، أي إلى حد ما ، بديمومة هادئة نسبياً للمحاَصرة . يصعب الاتجاه خلال هذه الاحوال المتناقضة للوصول إلى الموجـودات الحقيقية المحدّدة للحالـة الوجدانية الواعية ونحن مضطرون الى الاخذ بعين الاعتبار الظروف بحيث يتم في وسطها تحقيق الاستدراك الوجداني ، أثناء العملية المتعاقبة الثانوية .

---

(١) مستدل Inféré من فعل استدل Inférer أي أقام الدليل بالاستخلاص مـن دليل أولي .

هذه الخاصية الاخيرة للوجدان الواعي في الحلم ، يمكن على الارجح تفسيرها وذلك بافتراض أن التيار العكسي للكمية (ك نَ) المتجه نحو (و) ، متعارض مع التيار الطاقي نسبياً الذي يتجه نحو المسالك (نَ) لحالة التداعي . يبدو بأن شروطاً أخرى تطبّق في العمليات المتعاقبة الواعية وجدانياً (و) .

القسم الثاني

مبحث الأمراض النفسية

Psyehopathologie

مدخل

٢٥ أيلول ١٨٩٥

في القسم الاول من هذا المؤلف ، عرضتُ كل ما يمكن مسبقاً وإلى حد معين ، استنتاجه من فرضيتنا الاساسية ، وذلك بعد تكييفها وتصحيحها إستناداً إلى بعض المعطيات الاختبارية . في هذا القسم الثاني ، سأحاول جاهداً تحديد ، بواسطة تحليل العمليات المتعاقبة الباتولوجية ، خاصيات أخرى للطريقة النظامية المرتكزة على فرضيتنا الاساسية . في القسم الثالث ، المرتكز على القسمين السابقين ، سأحاول إبراز كل ما يميز مجرى الظاهرات النفسية الطبيعية .

المبحث المرضي النفسي المختص بالهستيريا

١) الاستحواذ الهستيري

سأبدأ بوقائع من الممكن ملاحظتها في الهستيريا ولكن ليست بالضرورة مختصة بها .

كل مراقب للمصابين بالهستيريا يلاحظ بلا صعوبة بأن هؤلاء المرضى يخضعون لاندفاع استحواذي منبثق من تصورات ذات توتر متجاوز الحد hyperintenses . تنبثق فكرة أغلب الاحيان في الوجدان من غير أن تبرّر الاحداث الظهور – أو تُرافق يقظة هذه الخلية العصبية بنتائج نفسية غير مفهومة . إن القدوم المباغت للتصور المتوتر إلى حد التطرف ، يولّد نتائج بحيث لا يمكن حذفها ولا يمكن فهمها : تفريغات التأثر الأولي ، حالات إعصاب محرّكة ، حالات كبت . إن الشخص بذاته يلاحظ غرابة موقفه (أو حالته الشاذة) .

يمكن أيضاً لتصورات ذات توتر شديد متجاوز الحد الظهور فجأة بشكل طبيعي . فهذه التصورات تعطي الأنا طابعه الخاص . إنها لا تفاجئنا عندما نعرف نموها وتطورها الوراثي (تربية ، وقائع عاشها الشخص) ودوافعها . من عادتنا اعتبار هذه الأفكار الشديدة جداً كعواقب لأسباب قديرة ومعقولة . لدى المصابين بالهستيريا ، بالعكس ، إن التصورات المنطرفة تلفت نظرنا بقوة من حيث غرابتها . هذه الأفكار بالذات تظل بلا تأثير لدى أشخاص آخرين ولا نستطيع إدراك الأهمية . إنها تبدو لنا كأنها دخيلة ، مغتصبة ، فنعتبرها سخيفة .

إذن ، يبدو الاستحواذ الهستيري : ١) غير مفهوم . ٢) من المستحيل تفسيره بواسطة أية عملية متعاقبة تأملية . ٣) مناف للعقل من حيث بنيته .

يوجد استحواذ عُصابي بسيط متقابل مع الاستحواذ الهستيري .

لنأخذ مثلاً : عرّض رجل نفسه لخطر كبير عند وقوعه من السيارة ؛ بعد ذلك أصبح الأمر مستحيلاً فيما يتعلق باستعمال هذه الوسيلة من التنقل . يبدو لنا هذا الاستحواذ : ١) مفهوماً ما دمنا نعرف المنشأ . ٢) غير مناف للعقل ما دام التداعي مع فكرة الخطر يبرر الخوف المرتبط بالمسيرة في السيارة . إنما ، لا يقدر أي عمل عقلي على منع هذا الادراك ، ذلك ما يؤدي إلى عدم اعتبار هذا الأمر مَرَضياً بصورة كلية . إن أفكارنا الطبيعية normales الشديدة جداً ، أليست هي أيضاً ، أغلب الأحيان غير ممكن طردها ؟ إننا نميل نحو إنكار كل خاصية مرَضية لحالات الاستحواذ العُصابي ، إذا لم تظهر لنا التجربة بأن لدى الشخص الطبيعي ، مثل هذا الاستحواذ لا يدوم إلا لوقت قصير بعد الحادث المحدّد ، كي ينقص فيما بعد رويداً رويداً . هكذا ان ديمومة الاستحواذ تفضح حضور العُصاب البسيط .

والحال أن تحاليلنا قد بينت بأن الاستحواذ الهستيري يختفي منذ أن نفسره ، أي منذ أن نجعله مفهوماً . هاتان الخاصيتان لا تشكلان في الواقع إلا واحدة . ويمدنا التحليل أيضاً بما يتعلق بمصدر المظهر المنافي للعقل والمخالف لقواعد التهذيب المختص بهذه العملية المتعاقبة . في معظم الأحوال ، هاك كيفية ظهور نتيجة التحليل :

قبل التحليل – (أ) هو تصور ذو شدة متطرفة الذي يظهر فجأة أغلب الأحيان في الوجدان الواعي مسبباً الدموع ، كل مرة ، يجهل الشخص الفاعل لماذا (أ) يجبره على البكاء ويعتبر مثل رد الفعل هذا ، منافياً للعقل ، غير أنه لا يقدر على منعه .

بعد التحليل – اكتشفنا وجود فكرة معينة (ب) التي سببت بحق دموعاً . إنها تطرأ غالباً إلى أن يتوصل الشخص بواسطة عمل نفسي معقد ، إلى حذفها . إن تأثر (ب) ليس منافياً للعقل ، إن الشخص يفسره لذاته ، وبامكانه أن يهزمه .

تملك (ب) بعض نقاط الاحتكاك مع (أ) . فنتج عن ذلك حدث مكون من (أ ب) . (أ) تمثل ظرفاً ملحقاً ، بينما (ب) يملك كل ما يلزم لتوليد تأثر مستديم . عندما تظهر من جديد ذكرى هذا الحدث ، كل شيء يجري كما لو أن (أ) قد حل محل (ب) . إذن استبدل (ب) بـ (أ) ، وأصبح « الرمز [1] » . من هنا كان الانطباع بالحالة المنافية للعقل ما دام (أ) يرافق بعواقب تفوقه ، التي لا تتلاءم معه .

تتكون الرموز أيضاً بشكل طبيعي . يضحي الجندي بحياته لأجل قطعة قماش متعددة الألوان معلقة على سارية ، ذلك لأن هذه القطعة من القماش رمز وطنه الذي ولد فيه ، لا يعتبر أحد مثل هذا الواقع مَرَضياً . لكن الرمز الهستيري يختلف عن ذلك . إن الفارس الذي يُقتل لأجل قفاز سيدته يعرف جيداً بأن كل قيمة هذا القفاز متعلقة بهذه السيدة والأهمية التي يبديها له لا تمنعه اطلاقاً عن التفكير بالسيدة وعن خدمتها بطرائق مختلفة . إن (أ) الذي يسبب بكاء المصاب بالهستيريا يجهل بأن الأمر متعلق بالتداعي بين (أ) و (ب) حيث لا

---

(١) بعد « الدراسات عن الهستيريا » ، استعمل فرويد نادراً بهذا المعنى التعبير « الرمز » Symbole .

بقوم (ب) ذاته بأي دور في حياته النفسية . في مثل هذه الحالة ، تم استبدال الرمز كلياً بالغرض .

هذا التبرير صحيح كل الصحة . يسهل الاقتناع بأن كل مرة يأتي منشط من الخارج أو حاصرتْ حالةُ التداعي (ب) ، إنمـــا (أ) هي التي تظهر في الوجـــدان الواعي . نتوصل إلى اكتشاف ماهية (ب) استناداً إلى الظروف التي ظهرت فيها فجأة (أ) بصورة غريبة حقاً .

نقول ونحن نختصر هـــذه الحالة من الأشياء بأن (أ) استحواذية و (ب) مكبوتة (على الأقل مطرودة خارج الوجدان الواعي) .

لدهشتنا الكبرى ، كشف لنا التحليل بأن كل استحواذ يقابله كبتٌ وبأن الأمنيزيا تؤثر في الانقطاع المفرط داخل الحالة الوجدانية الواعية .

إن العبارة « شدة التأثر المفرط » تشير إلى خاصية من النوع **الكمي** . كل شيء يدعونا إلى اعتبار الأمر التالي :

يبين **الكبت** من وجهـة الكمية ، نقصاً للكمية ومجموع الإثنين [أي الاستحواذ زائد الكبت] يساوي الحالة الطبيعية . عند هذه الحالة ، حصل تعديل **لتوزيع** الكمية . شيء ما ، قـد أضيف إلى (أ) بعد انتزاعه من (ب) . إن الظاهرة المرَضية هي العملية المتعاقبـة الخاصة **بالانتقال** ، شبيهة بالعمليات التي نلاحظها في الأحلام . إنها تشكل إذن العملية المتعاقبة الاولية .

عناصر تكوين الاستحواذ الهستيري

عدة مسائل مهمة ، تُطرح الآن على بساط البحث . في أية أحوال

يتم التكوين المرضي للرمز الشبيه له (أو من ناحية أخرى) للكبت ؟ ما هي القوة التي قامت بها وظيفة الحالة العصبية [1] بطريقة التصور الشديد التأثر حتى الكبت ؟

نجهل ذلك تمامـــاً ولا يمكن لاي شيء الخروج لو لم تكشف لنا التجربة السريرية هذين الواقعين : أولاً ، إن الكبت يؤثر في التصورات دون سواها ، التي توقظ داخـل الانا انفعالات مؤلمة (الكـَدَر) . ثانياً ، يتعلق الامر دائماً بالجنسية Sexualité [2] . نشك عـلى الفور بأن الكبت وليد انفعال مؤلم . لقد أقرينا سابقاً بوجود « دفاع أولي » الذي يتكون من تراجع لتيار الافكار ، مذ أن يقترب ذلك من الخلية العصبية حيث تسبب المحاَصرة الكدَر .

ملاحظتان تساعدان على تبرير فرضيتنا : ١) بالتأكيد ليست المحاصرة التي نبحث عنها وقتما أقامت العملية المتعاقبة التأملية موقفاً (نَ) مرضياً .

---

(١) نسبة إلى الخلية العصبية Neuronique .

(٢) زيادة في الايضاح أذكر التحديد العلمي المذكور في دائرة المعارف (كولبير) بالانكليزية : الجماع الجنسي Sexual intercouse من حيث العلاقات الجنسية المغايرة الطبيعية (أي صفة الشخص المشتهي أفراد الجنس الآخر heterosexual ، إيـلاج قضيب الذكر داخل مهبل الانثى ، الناتج عن تفاعل تشنجي متواتر في قذف المني الخاص بمني الرجل من القضيب داخل جهاز الانثى التناسلي . تتم حـتى النهاية هزة الجماع المتبادلة تحت ظروف نفسانية مثالية . (عندما يكون الفعل تاماً ، تحدث الهزة على الدوام في الذكر). يمكن للجماع الجنسي أن ينتج أو لا ينتج الاخصاب ، وذلك يتعلق بمتاحية البييضة (ovum) في جهاز الانثى عند لحظة الفعل . إن المصطلح « جماع » coitus يستعمل أيضاً للدلالة إلى الجماع الجنسي .
(المجلد الرابع دائرة المعارف الطبية منشورات فيشبان Fishbein) (ترجمة ف.ض.)

٢) عندما تنتهي تجربة مؤلمة بشكل منعكس ، يُستبدل الادراك الحسي بسواه .

ولكن توجد طريقة أكثر مباشرة لاقناعنا بالدور الملقى على عاتق التأثرات الاولية للدفاع . عندما ندرس الحالة حيث توجد [الفكرة] المكبوتة (ب) نكتشف بأننا قادرون بسهولة على ايجادها وإرجاعها إلى الوجدان الواعي . ذاك ما يثير دهشتنا إذا جاز لنا الافتراض بأن (ب) كانت حقاً منسية وبأنه لم يدم أي أثر في الجهاز (نَ) . إن الامر خلاف ذلك . (ب) صورة ذاكرية شبيهة بجميع الصور الاخرى ، صورة غير محمية ، ولكن عندما تكون (ب) كالعادة عقدة المحاصرات تعترض مقاومة ذات قدرة نادرة ومن الصعب قهرها ، كل نشاط عقلي يتعلق بـ (ب) . هذا الاعتراض لـ (ب) ، نرى ذلك على الفور ، يقدم قياساً للدُفعة التي تمارسها (أ) ونستخلص بأن القوة التي كبتت (ب) أصلاً تؤثر مرة أخرى في المقاومة . نتعلم في نفس الوقت ، شيئاً آخر أيضاً . إلى هنا ، كنا نعلم فقط بأن (ب) غير قادرة على أن تصبح واعية وجدانياً ، كنا نجهل كل شيء يتعلق بتصرفها بالنسبة إلى محاصرة الفكرة . نعلم الآن بأن المقاومة تعترض كل عملية عقلية تهم (ب) ، حتى لو حصل استدراك وجداني جزئي . لا يستحسن القول بأنه تم توليد « قذف » خارج الوجدان الواعي » ، ولكن فقط « احتفاظ خارج العملية المتعاقبة العقلية » .

إنها إذن عملية متعاقبة خاصة بالدفاع صادرة من الأنا المحاصر الذي أوجد مناسبة للكبت الهستيري ، وبتلك الوسيلة للاستحواذ الهستيري .

حق هذه النقطة ، تبدو العملية المتعاقبة مختلفة عـــن العملية المتعاقبة (نَ) الاولية .

الدفاع المرَضي (الباتولوجي)

كيفما كان الامر ، ما يزال يبـــدو حل المشكلة [1] بعيداً . رأينا بأن نتيجة الكبت الهستيري ، مختلفة جداً عن نتيجة الدفاع الطبيعي . نتجنب ، هذا مؤكد ، التفكير بالاشياء التي ليس بوسعها إلا أن تكون مكدّرة ونتوصل بذلك ونحن نوجه تفكيرنا نحـــو مواضيع أخرى . ولكن ، حتى لو نجحنا في جعل الانبثاق داخل الوجدان الواعي لتصور لا يطاق (ب) ، أندر ، وذلك بالاحتفاظ به منعزلاً بقدر الامكان ، لا نتوصل أبداً إلى نسيانه بحيث يكون أي إدراك حسي جديد قادراً على إظهاره من جديد وبصورة فجائية . وعودة فكرة مماثلة لا يمكن تجنبها أيضاً في الهستيريا . إن الفرق الوحيد يكمن في النقطة التالية : إن ما يصبح واعياً وجدانياً في هـذا المرض (أي ما يوجد محاَصراً) هو دائماً (أ) بدلاً من (ب) إن الإفراط البالغ للدفاع الطبيعي وليدُ ترميز غير قابل للتعديل .

يخطر ببالنا أول تفسير مؤكد : يُنسب هـذا السير المتطرف إلى أكـبر شدة خاصة بالتأثر الاولي الدفاعي . لكن التجربة تبين بأن

---

(١) مشكلة Problem ١) أي مسألة محيرة تستوجب تحديـــداً راسخاً ، بخاصة عندما يكون الحل صعباً أو غير مؤكد أيضاً عندما يكون الظرف أو الشخص مربكاً . ٢) أي المسألة المتعلقة بالتصرف السلوكي ، بسوء التوافق الخ ... مثلا : مشكلة الطفل . ٣) مسألة للحل بواسطة طرائق علمية . مثلا : مسألة هندسية (جيومتريك) . من اللاتينية بروبليما Problema وأصل الكلمة يوناني .

الذكريات الأكثر ألماً (ذكريات الندم التي تسببها الأفعال القبيحة) لا يمكنها أن تكون مكبوتة ولا أن تستبدل بواسطة الرموز . إن وجود الشرط الثاني الضروري للدفاع المرضي - الجنسية - يشير الى وجوب البحث عن تفسير في موضع آخر .

لا يمكن الافتراض بأن الانفعالات الجنسية المكدرة قادرة على التفوق الى نقطة معينة من حيث الشدة ، جميع التأثرات الأولية المؤلمة الأخرى . من المؤكد بأن التصورات الجنسية تقدم خاصية أخرى بحيث تفسح المجال لفهم لماذا تكون الأفكار فقط من النوع الجنسي خاضعة للكبت .

تفرض هنا ، ملحوظة أخرى : بالطبع ، يتحقق الكبت الهستيري بفضل الترميز [1] ، بفضل **الانتقالات** نحو خلايا عصبية أخرى . جاز لنا الاعتقاد بأن اللغز يرقد في سير أجهزة الجسم الخاص بهذا الانتقال وبأن الكبت بذاته لا يطرح أية مشكلة . ولكن ، عند تحليل **المهووسين** [2] مثلاً ، نلاحظ وجود لديهم حالات من الكبت بلا ترميز وبأن الكبت والاستبدال لا ينفذان تزامنياً . إذن ، داخل **الكبت** يكمن مفتاح المشكلة .

---

(١) ترميز Symbolisation أي نقل القيم الانفعالية من الشخص أو الغرض أو الفعل الى سواه .

(٢) مهووس ، مضايق ، محاصر Obsédé أي الشخص الذي يكون فريسة للاستحواذ ، لفكرة ثابتة . المهووس الجنسي هو المريض عقلياً الذي لا يفكر إلا باللذات الجنسية .

الأكذوبة الاولى

رأينا بأن الاستحواذ الهستيري ، ينبثق من نوع خاص من حركة الكمية (الترميز) ، الذي يشكل بوجه الاحتمال عملية متعاقبة أولية ، ما دمنا نستطيع رؤيته عند العمل داخل الأحلام [1] . في مثل هذه الحالة ، تنتج القوة المحركة عن دفاع معارض بواسطة الأنا ، القوة التي لا تجتاز حدود المهمة الطبيعية . لزم تفسير الأمر التالي : لماذا ترافق فعل الأنا تأثيرات ألِفنا ملاحظتها ضمن العمليات المتعاقبة الأولية ؟ لزم إذن توقع اكتشاف بعض الشروط النفسية الخاصة . تمدنا الكلينيك [2] بأن كل ذلك يخص الميدان الجنسي وحده . ربما استطعنا التوصل الى تفسير الشروط النفسية الخاصة بواسطة الملامح المميزة الطبيعية للجنسية .

والحال أننا نجد في الميدان الجنسي كوكبة نفسية معينة من الممكن أن تكون قادرة على تنويرنا . لقد أدركنا ذلك بالطريقة الاختبارية

---

(١) فيما يخص العمليات المتعاقبة الاولية ، راجع الفصل السابق « المفاهيم الاولية للأنا » .

(٢) كلينيك Clinique مؤسسة خاصة حيث تجري العمليات الجراحية ، حيث يعالج المريض .

وسيلقي المثال ضوءاً عليها [1] .

تطارد إيما حالياً الفكرة التالية : يجب أن لا تدخل وحدها الى دكان . وتعلل ذلك استناداً الى ذكرى يعود تاريخها الى السن الثالث عشر (بعد فترة المراهقة بقليل) . إذ دخلت الى دكان لشراء غرض ما ، شاهدت فجأة بائعين (انها تتذكر أحدهما) كانا يقهقهان . اعتراها شعور من الرعب ، فخرجت مهرولة . من هنا كانت الفكرة بأنهما كانا يسخران من هندامها وبأن أحدهما أثّر عليها تأثيراً جنسياً .

إن الرباط الذي يجمع هذه الأجزاء من القصة وتأثيرات الحادث الطارىء ، يظل غير مفهوم . لو أثر البائعان في نفسها وتركا أثراً مكدراً لما سخرا من هندامها ، لزم أن يمحى هذا الانطباع السيء منذ مدة طويلة – حينما أخذت ترتدي كسيدة . ذهبت لوحدها أو يرافقها أحد ما، الى الدكان ، فذاك لا يبدّل شيئاً فيما يتعلق بلباسها . لا يتعلق الأمر فقط بمسألة الحماية (كما هو الحال لدى مرض 'رهاب الخلاء [2]) ، ما دامت مرافقة الولد الصغير لكافية لاعطائها شعور من الأمان . لكن عنصراً منعزلاً تماماً ، يظل مستمراً : أحد الرجلين قد أعجبها . ولكن هنا أيضاً ، إن مرافقة الولد لها ، لا تغير من الأمر شيئاً . هكذا تظهر فجأة من جديد الذكرى ، لا تفسر لا الاستحواذ ولا تحديد الرمز .

---

(١) لم يعد يستعمل فرويد هذا المثال في مؤلفاته المنشورة .

(٢) رهاب الخلاء أ) أي خوف مرضي من الارض الفضاء .
ب) خوف أو نفور مقلق الذي يعانيه الشخص المريض اثناء اجتياز مكان ما أو الشارع.
(بالاجنبية : أغورافوبي Agoraphopie . مصدرها يوناني: أغورا: الساحة العامة، فوبوس : خوف Agora . Phobos .

يلقي التحليل ضوءاً على ذكرى أخرى التي – كما تقول – لم تكن حاضرة في بالها أثناء المشهد I ، ولا يؤكد أي شيء مثل هذا الحضور. عند الثامنة من عمرها ، دخلت مرتين الى دكان البقال لشراء حلويات ذائبة فوضع البائع يده تحت قماش ثوبها ، على أعضائها التناسلية . رغم هذا الحادث الطارىء الأول ، رجعت مرة ثانية الى الدكان ثم امتنعت عن ذلك . ثم لامت نفسها فيما بعد لأنها رجعت عند هذا البائع ، كما لو أنها أرادت إثارة انتهاك جديد . في الواقع ، « ان الوجدان السيء » الذي يعذبها جاز أن يكون مشتقاً من هذا الحادث الطارىء .

نفهم الآن المشهد I (المتعلق بالمستخدمين) اذا قربناها من المشهد II (المتعلق بالبقال) . لم يبق لنـــا سوى اكتشاف بين الاثنين رابطة تشاركية . إن المريضة بذاتها ذكرت لي هذا الرباط الناتج عن **الضحك**. أحد المستخدمين ذكّرها بالابتسامة الساخرة التي استعملها البائع أثنـاء وضع يده على أعضائها التناسلية . والآن ، لنؤسس من جديد كل العملية المتعاقبة . **ضحك** البائعان في الدكان ، وهذا الضحك يذكّر (بصورة لا واعية) الذكرى المتعلقة بالبائع . توجد نقطة مشتركة بين الموقف الثاني والموقف الأول : لم يرافق الصغيرة أي شخص . كانت تتذكر اللمس الذي مارسه التاجر . ولكن منذ ذلك الحين ، بلغت سن المراهقة . إن الذكرى تولّـد **دفعة جنسية** (التي لم تكن ممكنة عند لحظة الحادث الطارىء) وتتحول الى قلق . سيطر عليها الخوف ، إنهـــا تخاف من المستخدمين ، علها يكرران انتهاك حرمتها فولت هاربة .

من المؤكد تماماً بأننـــا نجد أنفسنا هنا بحضور تشبك من نوعين من العمليات المتعاقبة (ن) وبأن تذكّر المشهد II (المتعلق بالتاجر) قد

تم حدوثه في حالة مختلفة من الحالة الاولى . يمكن تقديم مجرى الاحداث بالطريقة التالية :

إن التصورات المحددة بنقاط سوداء هي المدارك الحسية التي تتذكرها المريضة . ان حالة التفريغ الجنسي الذي اخترق الوجدان الواعي موضحة بواسطة الفكرة – من غير ذلك يكون الأمر غير مفهوم – حيث أن المستخدم الساحر قد اعجبها . إن النتيجة النهائية التي استنتجتها هي التالية : لا يجب البقاء وحدها في الدكان خوفاً من انتهاك حرمتها ، وهذه النتيجة تبدو منطقية اذا اخذنا بعين الاعتبار جميع عناصر العملية المتعاقبة التشاركية . ولكن لم يصبح واعياً وجدانياً أيُ عنصر للعملية المتعاقبة (المذكور أعلاه) ، باستثناء عنصر « الثياب » . إن قسماً من الفكرة الذي يعمل بصورة واعية قد أقام ارتباطين مغلوطين في المواد المذكورة (المستخدمان ، الضحكات ، الثياب ، الاحساس الجنسي) : سخرا منها بسبب لباسها وأحد البائعين ولّد عندها التهيج الجنسي .

إن مجموع هذه العقدة (المشار اليه بواسطة الخطوط المنكسرة) مجسّد داخل الوجدان الواعي بواسطة الفكرة الوحيدة الخاصة « بالثياب » اي بواسطة العنصر الذي هو بالظاهر الاكثر براءة . لقد حدث هنا كبت مصحوب بترميز . تملك العاقبة – الدالة العرضية – بنية راسخة تماماً بصورة منطقية وهكذا ، لا يلعب الرمز أي دور ويظل خاصية لحالة .

نقول إن الامر التالي لا يدعو الى الدهشة اطلاقاً : رؤية حالة التداعي وهي تمر خلال عدد معين من حلقات السلسلة الواقعة في الوسط اللاوعية كي تصل أخيراً الى حلقة واعية ، كما حدث مثل ذلك ، هنا

ان العنصر الذي اصبح واعياً هو على الارجح الذي أثار الاهمية الاكثر حيوية . ولكن فالجدير بالذكر ، فيما يخص مثالنا ، ليس امر انتهاك الحرمة الذي اخترق الوجدان الواعي ، ولكن عنصراً آخر رمزياً : الثياب . اين لزم البحث عن سبب هـذه العملية المتعاقبـة المرضية المدرجة ؟ هناك جواب واحد ممكن :

انها وليدة **التفريغ الجنسي** حيث احتفظ الوجـدان الواعي بالأثر وبقي مرتبطاً بذكرى انتهاك الحرمة . ولكن لزم التأكيد على واقـع مهم ، مع العلم بأن التفريـغ لم يكن مرتبطاً بالحادث الطـارىء في ذات اللحظة التي تم فيها حدوثه . نجد هنا مثالاً لذكرى وهي تحرض التأثر الاولي الذي لم يتم تحريضه من قبل الحادث الطارىء بالذات . في ذلك الحين ، إن التغييرات الناتجـة عن سن المراهقة جعلت من الفهم الجديد للوقائع التي تذكرتها ثانية ، أمراً معقولاً .

هذه الحالة تقدم لوحاً نموذجياً للكبت الهستيري . لا ننسى ابـداً اكتشاف الامر التالي : ان الذكرى المكبوتة لم تتحول إلا بعد فوات الأوان فيما يخص التروماتيسم (أي الصدمة النفسية) . توجد عـلة هذه الحالة من الاشياء في عهد متأخر من سن المراهقة وذلك بالمقارنة مع بقية تطور الافراد[1] .

---

(١) فرويد ، في اكتشافاته اللاحقه بالنسبه الى الجنسيه الطفلية وبالنسبة الى اهميتها لم يتخل تماماً عن وجهة النظر هذه ، والقى الضوء على المحاصرة التراجعيه للمواد الطفلية ، اثنـاء سن المراهقة .

الاكذوبة الاولى الهستيرية

من النادر أن تثير الذكرى في النفسية [1] انفعالاً بحيث لا يبرره اي حادث طارىء فعلي ، ذلك ما يحدث عادة عند حالات التصورات من الصنف الجنسي – على وجه الدقة بسبب تأخر طور المراهقة . بشكل هذا التأخير خاصية عامة للتعضية [2] . كل مراهق يخفي آثاراً ذاكرية التي لا تصبح مفهومة إلا بعد ظهور احاسيسة الجنسية الخاصة . اذن كل شخص لزم ان يحمل في ذاته نطفة [3] الهستيريا . يجب بالطبع ان تدخل في اللعبة عوامل اخرى اذ ان هذا الميل الشامل يلتزم حدود عدد قليل من الافراد الذين أصبحوا حقاً هستيريين .

والحال ان التحليل يظهر بأن التفريغ العاطفي هو الذي يشكل عند الصدمة النفسية الجنسية ، العنصر المحرض على الانحراف . بالاضافة

---

(١) النفسية Psychisme ، اي مجموع الخاصيات النفسية لشخص معين ،

(٢) تعضية (الجسم الانساني) Organisation أي طريقة تكوين الاعضاء واعدادها للقيام بوظائفها (قاموس الكنز) .

(٣) نطفة germe من اللاتينية (جرمن) germen اي مرحلة بسيطة وبدائية حيث يشتق منها كل كائن حي .

الى ذلك ، تمدنا التجربة جزئياً ، بأن المصابين بالهستيريا هم اشخاص ذو جنسية متيقظة بشكل باكوري ، بحكم المنشطات الميكانيكية والانفعالية (الاستمناء باليد)[1] والذين نقول عنهم بعض الاحيان بأنهم يملكون استعداداً لحالات التفريغ الجنسي الباكوري . إن بداية باكورية من التفريغ الجنسي او التفريغ الشديد جداً بشكل باكوري ، يلتزمان بالطبع دوراً مماثلاً . هذا العامل هو من العنف الكمي . ما هو المعنى الذي لزم إنسابه الى هذه الباكورية المختصة بالتفريغ الجنسي؟ من المستحسن أن ننسب اليه اكبر اهمية ممكنة اذ لا يمكننا التأييد بأن كل تفريغ جنسي مصحوب بالكبت ، والا سيعتبر ذلك كعملية متعاقبة ذات تواتر طبيعي .

اضطرابات الفكر ، الناتجة عن تحريض التأثرات الأولية

هكذا ، لزم علينا أن نستخلص بأن الاضطراب الذى يؤثر في العملية المتعاقبة النفسية الطبيعية منوط بشرطين :

١) بالتفريغ الجنسي المرتبط ليس بحادث طارىء حقيقي ولكن بالذكرى .

٢) بالتفريغ الجنسي الباكوري جداً .

عندما يكون هذان الشرطان حاضرين ، ينتج عن ذلك تشوش تحريضي . إنه يجتاز القياس المألوف ، ولكننا نكتشف أيضاً آثاراً لذلك لدى الأشخاص الطبيعيين .

---

(١) الاستمناء باليد ، العادة السرية Masturbation .

أن التجربة اليومية تمدنا بأن كل توليد للتأثر الأولي يعرقل المجرى الطبيعي للفكر وذلك بطرائق مختلفة في البداية ، تكون حالات تشاركية عديدة خاضعة للنسيان وإلا سيدرك الشخص ذلك الأمر ـ قليلاً كما هو الحال في الأحلام . حدث لي ، وانا في خضم الاضطراب الناتج عن قلق خطير ، أن انسى استعمال التلفون الذي ركبته حديثاً في منزلي . إن المسلك المنشق حديثاً قد أصبح ممحياً بحكم الحالة العاطفية . إن التسهيل اي المسلك القديم يتخذ من جديد مكانه الأول . حالات متشابهة من النسيان تفرض فقداناً للقدرة على الأصطفاء ، والفعالية والتمنطق ، تماماً كما هو الحال في الأحلام . ثانياً ، إن لم يوجد نسيان ، ستكون المسالك التي لولا ذلك لتجنبناها ، مصحوبة ، بالأخص المسالك التي تنتهي الى تفريغ شأن مثلاً الأفعال التي تُنفَّذ تحت سلطة إنفعال ما باختصار ، ان رد الفعل العاطفي يُذكر بالعملية المتعاقبة الأولية غير المعرقلة .

نستطيع أن نستخلص بعض النتائج ، أولاً ، عندما يتم تفريغ التأثر الأولي ، يشتد توتر التصور الذي أثاره . ثم ، تكون المهمة الأساسية للأنا المحاصر ، تجنب عمليات متعاقبة جديدة التي تفرض تأثرات أولية وتنقيص التسهيلات العاطفية القديمة . لا يمكن وصف هذا الموقف إلا بالطريقة التالية : تُلاحق المحاصرة الحواسية أصلاً بتجربة مؤلمة مولدة للكدر ، يحصل ازدياد للمحاصرة من حيث الكمية (ك نَ) التي حُررت وتحاول ان تقوم بالتفريغ الذاتي وهي تتبع مسالك منشقة مثلاً ، جزئياً . بعد توطيد الانا المحاصر ، يتعلق « الانتباه » بحالات المحاصرة الحواسية الجديدة ، التي تولدت بالطريقة التي نعرفها وسيتبع ، مزوداً بمحاصرات جانبية ، ذات المسلك الذي تلتزمه الكمية الآتية من

(و)[1] .

بالاضافة الى ذلك ، كلما كانت الكمية المتجهة نحو الانسياب مهمة ، كلما لاقى الانا صعوبة لتكريس نفسه للنشاط فكري الذي يتضمن كما تشير جميع الدلائل الى ذلك ، انتقالاً اختبارياً من كميات صغيرة (ك ن). ان « التفكير » هو نشاط مختص بالأنا الذي يستوجب وقتاً ، يصبح غير ممكن عندما يقتضي المستوى العاطفي كميات كبيرة . لذلك ، عندما يوجد تأثر أولي ، نلاحظ تدفقاً واختباراً لوسائل مماثلة للوسائل التي تقتضيها العملية المتعاقبة الأولية .

اذن يتعلق الامر بالأنا لمنع كل تحرك انطلاقي خاص بالتأثر الاولي الذي يفسح المجال عندها لتوليد عملية متعاقبة أولية . ان افضل اداة يلزمها لأجل طريقة العمل هذه ، هي سير اجهزة الانتباه . اذا كانت المحاصرة المولّدة للكدر قادرة على التهرب من الانتباه ، سيكون تدخل الانا متأخراً جداً . ذاك ما يحدث بالضبط عند حالة proton pseudos الهستيرية . يتركز الانتباه على المدارك الحسية القابلة بعامة لتوليد الكدَر . انه هنا اثر ذاكري وليس ادراكاً حسياً الذي يسبب بغتة هذا الكدر ويكتشفه الأنا بصورة متأخرة جداً . ذلك لأنه لم يكن يتوقع ذلك حتى افسح المجال لحدوث عملية متعاقبة أولية .

مع ذلك تستطيع الذكريات توليد الكدر في مناسبات أخرى . بالطبع تكون الحالة طبيعية تماماً ، عندما يتعلق الأمر بذكريات جديدة . عندما تحدث صدمة نفسية (حادث طارىء مؤلم) للمرة الأولى ، في مرحلة حيث يكون الأنا قد تكوّن قبلاً — اذ ان الصدمات النفسية

---

(١) هذه العملية المتعاقبة موصوفة مطولا في القسم الثالث من هذا الكتاب .

الاولى لايطالها اطلاقـــاً الأنا - يوجد توليد للكدر . لكن الانا هو الحصيلة ويخلق عندها محاصرات جانبية . ثم عندما تحدث محاصرة للأثر الذاكري ، يتجدد الكدر ، لكن تسهيلات الأنا توجد قبلاً وتبين التجربة بأن هذا التحرك الانطلاقي الثاني لكدر ينقص . الى أن توجد بعد تكرار متعدد ، اشارة واحدة من الشدة التوترية بحيث يكون الأنا قادراً على تحملها . ان الامر الاساسي هو اذن هو وجود كبت للأنا منذ التحرك الانطلاقي الاول للكدر ، حتى لا تنفذ العملية المتعاقبة على طريقة التجربة العاطفية الاولية « polhume » . مع أنـه ، ذاك ما يحدث بالضبط عندما ، شأن حالة Proton pseudos الهستيرية ، يحصل بصورة طارئة تحرك انطلاقي للكدر .

بتلك الوسيلة . يتم التأكيد على أهمية احد الشروط الضرورية التي افادنا بشأنها الاختبار السريري ، مع العـــلم بأن الموعد المتأخر لسن المراهقة يجعل توليد العمليات المتعاقبة الأولية المتأخرة ، أمراً ممكناً .

القسم الثالث

محاولة بيانية للعمليات المتعاقبة (ن) الطبيعية

محاولات بيانية

للعمليات المتعاقبة (و) الطبيعية

٥ تشرين الاول ١٨٩٥ .

بلا شك ، يمكن اعطاء تفسير ميكانيكي « للعملية المتعاقبة الثانوية » استناداً الى التأثيرات التي تمارسها مجموعة من الخلايا العصبية ذات محاصرة ثابتة (الأنا) ، على خلايا عصبية أخرى ذات محاصرات متغيرة . لنحاول أولاً اعطاء هذه الظاهرات وصفاً نفسانياً .

من جهة ، لدينا الأنا ، من جهة ثانية (و) (المدارك الحسية) ، أي عند (ن) ، محاصرات صادرة من الجهاز (ك) (من العالم الخارجي). بقي لنا ضرورة اكتشاف سير الجهاز الذي بفضله يتوافق الأنا مع المدارك الحسية وهو يؤثر عليها . بالنسبة لي ، هذا السير متعلق بالواقع التالي : تمشياً مع فرضياتي ، كل ادراك حسي يثير بالتأكيد « و[1] .

---

(١) اي الجهاز (و) .

اي ينقل دالات النوعية [1] . بوجه أدق ، ان الادراك الحسي يثير في (و) الوجدان (وجدان النوعية) ويزوّد تفريغ التهيج الحواسي عند (ن) الاستعلام الذي يشكل في الواقع دالة من النوعية . اقترح اذن بأن دالات النوعية هذه ، في الادراك الحسي ، تثير اهتمام (ن) . هنا فيما يبدو ، يتكون سير جهاز الانتباه النفسي [2] . يصعب علي فيما يبدو اعطاء تفسير ميكانيكي (اوتوماتيكي) عن أصله . اعتقد اذن بأنه محدد بيولوجياً ، اي انه استمر خلال التطور النفسي ، اذن ان كل تصرف آخر للجهاز (ن) محذوف وذلك نظراً للكدر الذي يولده . ان الانتباه النفسي قادر على حصر الخلايا العصبية المحاصرة قبلاً بواسطة الادراك الحسي . هذه الحالة من الانتباه تجد نموذجها الاصلي في « تجربة الاشباع » (راجع الفصل السابق تجربة الاشباع) (التي تلعب دوراً مهماً للغاية فيما يخص التطور) وعند تكرار هذا الاشباع ـ ان حالات الاجتذاب الحيوي ولدت حالات من الشهوة والامل . لقد بينت قبلاً (في القسم الاول) بأن هذه الحالات تقتضي تبريراً بيولوجياً للفكر بكامله . في حالات مشابهة ، يمكن ان يوصف الموقف النفسي بالطريقة التالية : اجتذاب حيوي يولد داخل الأنا شدة توترية معينة ، وبعد ذلك ، محاصرة لتصور الغرض المحبوب (تصور الشهوة) . تمدنا التجربة البيولوجية بالامر التالي : يجب أن لا يكون هذا

---

(١) في الطبعة الالمانية عام ١٩٥٠ ، نجد بحكم غلطة ، كلمة « كمية » .

(٢) ان الدور المنسوب الى الانتباه في هذه المحاولة البيانية ، يفسر لماذا فرويد ابتعد عن ذلك في أعماله اللاحقة . انه يؤكد في « تفسير الاحلام » (صفحة ٥١٧ من الترجمة الفرنسية) على ان نشاطات الأفكار الاكثر تعقيداً بامكانها ان تحدث من غير مساهمة الوجدان الواعي » وبأن « الادراك الوجداني متعلق باتجاه مهمة نفسية معينة ، الانتباه ».

التصور محاصراً الى درجة اعتبار الادراك الحسي لزم ان يختلف التفريغ حتى اللحظة حيث تبرهن الاستعلامات بالنسبة للنوعية بأن المحاصرة هي من الصنف الحواسي . عندما يحدث ادراك حسي مطابق أو شبيه لفكرة الشهوة ، تكون خلاياه العصبية محصورة قبلاً بواسطة الشهوة أي تكون جميعها – أو البعض منها – محاصرة استناداً الى درجة توافق التصور مع الادراك الحسي . ان الفرق بين الفكرة والادراك الحسي يسبب التحرك الانطلاقي للعملية المتعاقبة العقلية التي تنتهي عندما تتوصل المحاصرات الحواسية الفائضة الى كشف السبيل حيث تختلط مع المحاصرات التفكرية [1] . بهذا نصل الى الذاتية [2] .

يوجد انتباه عندما يترسخ موقف من التوقع ، حتى فيما يتعلق ببعض المدارك الحسية التي لا تتوافق حتى ولو جزئياً مع محاصرات من الشهوة. في الواقع بات الأمر مهماً لإرسال محاصرة نحو جميع المدارك الحسية . يجد الانتباه تبريراً بيولوجياً . يتعلق الأمر فقط بجعل الأنا يدرك أي

---

(١) تفكرية : Idéatif : تفكر Idéation أي تكون الأفكار وتسلسلها .

(٢) (أ) الذاتية او الهوية Identité مصدرها لاتيني Idem اي هو بالذات اي وصف الشيء الذي هو من ذات طبيعة الشيء الآخر أو مجموع الظروف التي تجعل من الشخص هو ذات الشخص المحدد وبوجه التأكيد مثلا : تحقيق فى هوية شخص ما، أو مبدأ التطابق أي المبدأ الاساسي للمنطق التقليدي بحيث « يكون الشيء مطابقاً لذاته » مثلا : (أهي أ) .
(ب) راجع في هذا الصدد « تفسير الاحلام » (صفحة ٥١٢ من الترجمة الفرنسوية) حيث يضيف فرويد ، بعد أن يتحدث عن العلاقة بين الادراك الحسي وتحقيق الشهوة : اذن يميل هذا النشاط النفسي الأول الى « ذاتية من الادراك الحسي » اي الى تكرار للادراك الحسي بحيث ترتبط بها تهدئة الحاجة . » يعرض « المختصر الاجمالي » هذه الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً . يحاول فرويد أن يبين بأن الفكرة وتجربة الواقعية ناتجتان عن شدة توترية حيث يكون الطفل خاضعاً لها عندما ينتظر إشباعاً . راجع ايضاً صفحه ٣٨٥ وما يتبع .

نوع من المحاصرة لزم عليه ترسيخها ، ويتعلق القرار باستعلامات من النوعية .

نستطيع أن ندرس ، بشكل أدق أيضاً ، ترسيخ الموقف النفسي (المسمى انتباهاً) . في البداية ، يبدو بأن الانا مهيأ بشكل سيء . حدثت محاصرة حواسية مصحوبة باعلان من النوعية . ان التسهيل الضيق بين هذين الاستعلامين يزيد تدريجياً المحاصرة الحواسية والانتباه ، الذي هو حينئذ محاصر ، يتعلق بالخلايا العصبية الحواسية . يهدف الادراك الحسي التالي الخاص بنفس الغرض (بمقتضى القانون الثاني الذي يدير حالات التداعي) الى تحقيق محاصرة أشد للغرض المدرك حسياً وما يوجد سوى هذا الادراك الحسي الاخير الذي سيجد استعماله النفسي، هذا القسم من المحاولة البيانية يقودنا الى نتيجة مهمة للغاية . ليست المحاصرة الحواسية الاولى شديدة جداً ولا تتضمن إلا كمية ضئيلة (ك) ، في المرة الثانية . في حال توطيد المحاصرة المسبقة ، تكون الكمية اكثر أهمية . عندما لا يقتضي الانتباه اي تغيير أصلي في الحكم العقلي الذي نلتزمه على صفات الكمية للغرض . بالتالي ، إن الكمية الخارجية (ك) الأشياء لا يمكن التعبير عنها عند (ن) بواسطة الكمية النفسية (ك ن) . تملك الكمية النفسية (ك ن) مدلولاً مختلفاً تماماً وغير ممثل في الواقعية ، ان الكمية الخارجية (ك) تظهر عند الجهاز (ن) بشكل مختلف نوعاً ما بواسطة تعقيد المحاصرات . بهذه الطريقة ، تحتفظ الكمية الخارجية (ك) خارج الجهاز (ن) .

ان المحاولة البيانية التالية (للعملية المتعاقبة الموصوفة في الفقرة الاخيرة هي — باستثناء نقطة واحدة — أشد إرضاء أيضاً . بمقتضى

التجربة البيولوجية ، نعلم بأن الانتباه (ن) يتجه بشكل ثابت نحو دالات النوعية . تحدث تلك داخل الخلايا العصبية المحاصرة قبلاً هكذا تكون دالات النوعية مدعومة ، فتصبح قادرة بفضل تسهيلها ، على مضاعفة المحاصرات الحواسية . تعلم الانا فيما يتعلق بدفع محاصراتـه الخاصة بالانتباه داخل المسلك التشاركي الذي يقود دالات النوعية نحو الادراك الحسي . بهذه الطريقة يصبح الانا قادراً على محاصرة بالضبط المدارك الحسية الحقيقية أو ما يحيطها . عندما نعتبر بأن نفس الكمية (ك ن) تصدر من الانا وتنساب على طول التسهيل إنطلاقـاً من استعلامات النوعية حتى الادراك الحسي ، سنجد تفسيراً الميكانيـكي (التلقائي) للمحاصرات المختصة بالانتباه . يتخلى الانتباه اذن عن دالات النوعية للاتجاه نحو الخلايا العصبية الحواسية التي تكون حينئذ محصورة قبلاً .

لنفترض لسبب ما ، بأن سير أجهزة الانتباه قد توقفت عن العمل. عند هذه الحالة ، لن تتلقى الخلايا العصبية الحواسية المحاصرة (ن) والكمية (ك) ، التي تنالها ، فيتم نقلها (فقط بواسطة التداعي) مع اتباع افضل التسهيلات وبمقدار ما تسمح به العلاقات بين حالات المقاومة وأهمية المحاصرة الحواسية . على الارجح ، سيكون هذا المرور للكمية ذا مدة قصيرة ما دامت الكمية (ك) ستتوزع وستصبح في إحدى الخلايا العصبية المجاورة ، ضعيفـة جداً كي تنشر بصورة أكثر . إن مسيرة الكميات المرتبطة بالادراك الحسي (و) تقدر لاحقاً ، حسب الظروف ، إما على جذب الانتباه ، إما على المرور بشكل غير ملحوظ . عند هذه الحالة الأخيره ، ستصل من غير أن تُلاحظ ، الى داخل المحاصرة لبعض

الخلايا العصبية المجاوره التي نجهل مصيرها اللاحق . هنا يوجد المصير المخصص لكل ادراك حسي لم يوقظ الانتباه وتتولد الحالة من جديد يومياً مرات عديدة لا تحصى [1] كما يبين ذلك تحليلُ العملية المعاقبة للانتباه ، ان المسيرة المتبعة لا يمكنها ان تكون طويلة ، ذاك ما يقودنا الى استنتاج ضعف من الكميات (و) المرتبطة بالادراك الحسي .

ولكن عندما يتلقى الجهاز (و) محاصرة من الأنتباه ، عندها جاز حدوث عدة حالات ، لنذكر بالاخص موقفين : موقف الفكر السخيف وموقف الفكر المراقِب . إن الحالة الاخيرة تبدو الاكثر بساطة . يوافق ذلك حالة الباحث الذي يلحظ شيئاً ما ، فيتساءل : « ما معنى هذا ؟ الى اين سيقودني ذلك ؟ » ، ذاك ما يجري هنا ، ولكن كي لا نعقـــد الامر ، يجب ان استبدل الآن بالمحاصرة الحواسية المعقـــدة ، الخلية العصبية الواحدة . تكون الخلية العصبية الحواسية محصورة بشدة مفرِطة . ان الكمية الناتجة عن جمع الكميات الخارجية والنفسية (ك و ك ن) تنساب على طول أفضل التسهيلات وستجتاز عدداً معيناً من الحواجز بمقتضى المقاومة والكمية المستعملة . ستكون خلايا عصبية اخرى تشاركية محاصرة ، ولكن بعض الحواجز لن يتم اجتيازها ، لأن الجزء الذي يطالها لا يستطيع تجاوز المستوى .[2] من المؤكد بأن عدداً اكبر من الخـلايا العصبية — ومن الخلايا العصبية الاكثر بعداً — لن تكون محاصرة إلا عندما تتحقق العملية المتعاقبة التشاركية من غير مساهمة الانتباه . ولكن

---

(١) ان ما يتبع هو في حال تناقض مع آراء فرويد اللاحقة (المعروضة قبلا في « تفسير الاحلام ») حيث يعالج أهمية العمليات المتعاقبة النفسية ما قبل الوجدانية .

(٢) تسع كلمات قد أهملت في الطبعة الالمانية عام ١٩٥٠ .

عند هذه الحالة ، سيصل التيار الى نهايته أيضاً في محاصرة واحدة أو عدة محاصرات انتهائية . بفضل الانتبـــاه ، لن يتولد الادراك الحسي ولكن ستظهر عدة محاصرات ذاكرية مرتبطة تشاركياً بالخلية العصبية البدئية .

في سبيل الاختصار ، لنفترض بأن الأمر لم يعد يتعلق سوى بصورة ذاكرية وحيدة . اذا استطاعت هـذه أن توجد محاصَرة من جديد انطلاقاً من (ن) (بواسطة الانتباه) ، سيتكرر العمل وستعود الكمية (ك) للانسياب من جديد وستحاصِر (ستجعل تظهر من جديد) صورة ذاكرية جديدة على طول أفضل مسالك التسهيل . لكن التفكير المراقِب يميل بالطبع نحو الفهم الجيد للمسالك التي تؤدي الى أبعد مسافة ممكنة ابتداء من الجهاز (و) . بهذه الطريقة يتم الحصول على معرفة متعمقة للفرض المدرك حسياً . (لنذكر بأن طريقة التفكير الموصوفة هنا تؤدي في النهاية الى ملكة الادراك[1] . لهذا السبب لزم من جديد محاصرة (ن) للصوَر الذاكرية المصابة . ان عمل سَير الأجهزة القادر على توجيه هذه المحاصرة نحو أماكن ملائمة ، هو عمل ضروري كذلك . من غير ذلك ، كيف تعرف الخلايا العصبية (ن) الحاضرة داخل الأنا ، الاتجاه الذي لزم على المحاصرة التزامه ؟ إن سير أجهزة الانتباه شبيه للسير الذي وصفناه أعلاه يفترض قبلاً هنا أيضاً ، حضور دالات من النوعية . وهل تظهر تلك ، أثناء حالات التداعي ؟ لا نعتقد ذلك . غير أنه ، من الممكن أن تتولد بفضل عمل سير الأجهزة التالي : لا تنتج دالات النوعية بعامة إلا عن ادراك حسي . إذن يتعلق الأمر بالحصول على ذلك ، بفضل مرور

---

(١) ملكة الادراك أو المعرفة Gognition .

كمية (ك نَ) . اذا أُضيف عنـــد المرور تفريغ مرتبط بمرور الكمية (ك نَ) ، عندها يُشعر بهذا التفريغ ، شأن أي تحرك آخر . على كل حال ، أليست دلائل النوعية بذاتها دلائل للتفريغ ؟ (ربما سنرى لاحقاً من أي نوع هي) . غير أنه من الممكن أن يحصل الأمر التالي : أثناء مرور الكمية (ك) ، تحاصَر خلية محرّكة كي تفرّغ فيما بعد الكمية (ك نَ) وتولّد شارة من النوعيـــة . ولكن يتعلق الأمر بالحصول من جميع المحاصرات حالات مماثلة من التفريغ . انما ، ليست جميع الخلايا العصبية محرّكة ، لهذا السبب لزم أن تكون مصحوبة بخلايا عصبية محركة كي تلتزم مسلكاً مضموناً .

ذلك ما تسمح بتحقيقه حالات التداعي الشفوية . إنها تتضمن ربطاً للخلايا العصبية (ن) مع الخلايا العصبية التي تصلح للصور السمعية وهي بذاتها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقتضى حـــالة التداعي ، بالصور الشفوية المحرِّكة . تتميز حالات التداعي الأخيرة هذه ، عن سواها ، كونها تملك خاصيتين : إنها محاصَرة ضمن حدود معينة (أي استناداً الى عدد محصور) ومطلقة ، تمرّ من الصورة السمعية الى الصورة الشفوية ومنها الى التفريغ . اذا كانت الصور الذاكرية إذن مكوّنة بطريقة حيث ينتهي التيار المشقق الى صور سمعية وشفوية متحركة ، عندها تُرفق محاصرة الصور الذاكرية بدالات من التفريغ التي هي شارات النوعية ، وهي في نفس الوقت شارات الذكرى الواعية وجدانياً . عندها ، اذا حاصر الأنا قبلاً هذه الصور الشفوية ، كما حاصر قبلاً صور التفريغ الخاص بالمدارك الحسية ، إنه يخلق سير أجهزة قادراً على توجيه المحاصرة (ن) نحو الذكريات التي

تنبثق أثناء مرور الكمية (ك نَ) [1] . فنحن هنـــا في صدد التفكير الواعي المراقِب .

لا تجعل حالات التداعي الشفوية من الادراك أمراً ممكناً ، ولكنها تحقق شيئاً آخر مهماً للغاية . كما نعلم ، إن التسهيلات بين الخلايا العصبية (ن) ، تشكل « الذاكرة » – تصور جميع التأثيرات التي تمارَس على (ن) بواسطة العالم الخارجي . لكن الأنا يحاصِر هو أيضاً الخلايا العصبية (ن) ويثير التيارات التي تترك أثاراً بشكل تسهيلات . والحال أن الجهاز (ن) لا يملك أية وسيلة للقيام بتمييز بين هذه الآثار (نتائج العمليات المتعاقبة التأملية) ونتائج العمليات المتعاقبة الحواسية . من الممكن التعرف الى العمليات المتعاقبة الحواسية والقيام بإعادتها بفضل حالتهـــا التشاركية مع حالات التفريغ المختصة بالادراك الحسي ؛ لكن التسهيلات الناتجة عن التفكير لا تترك ورائهـــا سوى تأثيراتها وليس الذاكرة . من الممكن أن يتم تحقيق تسهيل من الفكر بواسطة العمليـة المتعاقبة الشديدة الوحيدة عوضاً من عدة عمليات متعاقبة أقل شدة . والحال أن دالات التفريغات بواسطة مسلك اللغة بإمكانها أن تساعد على تخفيف حالة العجز هذه . إنهـــا تحمل العمليات المتعاقبة التأملية على مجـال العمليات المتعاقبة الحواسية ناسبة اليهـــا الواقعية وجاعلة من ذكراها امراً ممكناً .

---

(١) كتب فرويد في « تفسير الاحلام »: لاعطاء نوعية لهذه العمليات المتعاقبة (من التفكير) ، يربطها الانسان بذكريات الكلمات.» في اعماله اللاحقة ، صاغ فرويد فكرته بالشكل التالي : يشمل التصور الواعي التصور الغيري بالاضافة الى التصور الشفوي المتوافق ، بينما التصور اللاواعي ما هو سوى التصور الغيري وحده » .
p. 156, Métapsychologie (l'Inconscient) .

يُستحسن تفحّص التطور البيولوجي لحالات التداعي الشفوية هذه، المهمة للغاية . إن إعصاب اللغة هو أصلاً التفريغ الذي يتحقق لمصلحة الجهاز (ن) ، شأن صِمام الأمان الذي يصلح لتمرير ذبذبات الكمية (ك نَ) ؛ إنه قسم من المسلك الذي يؤدي الى تعديلات داخلية ، الطريقة الوحيدة للانسكاب ما دام العمل النوعي غير معروف أيضاً . يكتسب هذا المسلك مهمة ثانوية ، لزم أن يجذب انتباه الشخص المغيث (الذي هو عادة الغرض المرغوب) لحاجات وبؤس الطفل . بهذه الطريقة التي ستندمج مع العمل النوعي ، سيكون التفاهم مع الغير مضموناً .

استطعنا أن نرى قبلاً بأنه عند اللحظة حيث تترسخ مهمة قدرة التمييز العقلي ، توقِظ المدارك الحسية الاهتمام نتيجة لارتباطها الممكن مع الغرض المرغوب . هكذا تكون عُقدها منقسمة الى جزء غير قابل للتمثل (« الغرض ») والى جزء آخر ينكشف للأنا بواسطة تجربته الخاصة (« خواصها » أو نشاطات الغرض) . فلهذه العملية نعطي اسم فَهْم . عندها نقطتان من الاحتكاك مع التعبير الشفوي : توجد ، في الدرجة الأولى أغراضاً (مدارك حسية) التي تسبب الصراخ لأن تحرّض على العذاب . إنه أمر ذو أهمية قصوى لما نرى بأن هذه الحالة التشاركية للصوت (وتوجد أيضاً مناسبة للصور المتحركة المختصة بحركات الشخص بذاته) مع ادراك حسي الذي هو بذاته عقدة ، قادرة على مضاعفة الطابع « العِدائي » للغرض وعلى توجيه الانتباه نحو ادراك حسي . صراخاتنا الشخصية تقارن طباعها بالغرض ، بينما خلافاً لذلك ، وبسبب العذاب ، لا نستطيع الحصول على أي مفهوم واضح نوعياً . هذا التداعي يولّد إذن الوسيلة لجعل الذكريات المؤلمة واعية واجتذاب الانتباه لنفسها :

إن الفئة الأولى من الذكريات الواعية تجد نفسها بهذه الطريقة مخلوقة [1]. بهذا ، ما علينا سوى القيام بخطوات معدودة لاكتشاف اللغة . توجد فئة ثانية من الأشياء التي ترسل باستمرار صخباً معيّناً أي الأشياء التي هي ضمن العقدة الحواسية حيث يلعب الصوت دوراً مـا . بحكم ميل للتقليد الذي يظهر فجـأة أثناء العملية المتعاقبة لقدرة التمييز العقلي ، يصبح من الممكن إيجـاد دالة لحركة (تنفّذ من تلقاء ذاتها) مرتبطة بهذه الصورة السمعية . إن مجموعة الذكريات التي نتحدث عنها هنـا ، بإمكانها بهذه الطريقة أن تصبح هي بذاتهـا واعية وجدانياً . لزم بعد ذلك إشراك الأصوات المرسلة إرادياً الى المدارك الحسية . هكذا ، إن الذكريات التي تظهر فجـأة عند اللحظة حيث يلاحظ الشخص الشارات الصوتية للتفريـغ ، تصبح واعية وجدانياً مثل المدارك الحسية وبإمكانها أن تكون محاصَرة ابتداء من الجهاز (ن) .

اكتشفنا هكذا ما يميز العملية المتعاقبة للتفكير التأملي ، وذلك عندما يبذل الانتباه جهده منـذ البداية لدالات التفريـغ المختصة بالتفكير أي لشارات اللغة . نعلم بأن ما نسميه بـ « التفكير الواعي » يُرفق بتصريف محرّك خفيف [2] .

---

(١) نستطيع ترجمة هذا المقطع ونحن نستعمل المصطلحات العلمية اللاحقة المختصة بفرويد: إن حالات الكبت التي يعاني منها الانسان في الطفولة الاولى ، تساهم بعامة مساهمة كبرى في نمو وتطوير حس الواقعية . بالأخص ، تزود الطفل عقلاً للتعرف من جديد الى الشخص والتحقق من هويته ، هذا الشخص الذي يهتم به والذي يمده في آن واحد الاشباع والكبت .

(٢) إن التفكير « هو أساساً نوع من العمل الاختباري الذي يرافق بانتقال لكميات ضعيفة من المحاصرة مع تصريف ضعيف (تفريغ) » . (صياغة المبدئين المختصين بالعمل الذهني ، ١٩١١ ب) .

من الممكن أن يلاحَق التيار الترابطي للكمية (ك) أثناء وقت غير محدود ، بوجه عـام حتى اللحظة حيث تكون جميع العناصر الترابطية الانتهائية « المعروفة تماماً » قد أُصيبت . إن تحديد المسلك ونقاطه الانتهائية يشكل تمييز (١) مـا كان على الأرجح ادراكاً حسياً جديداً .

نود الآن الحصول على استعلام من الصنف الكمي حول العملية المتعاقبة المختصة بملكة الادراك . بالمقارنة مع الحصيلة التي تتولد في العملية المتعاقبة الترابطية البسيطة ، نكتشف في مثل هذه الحالة بأن الادراك الحسي محاصَر بشدة مفرطة . تتضمن العملية المتعاقبة بذاتهـا انتقالاً للكميات (ك نَ) التي تعبّرها حالة ترابطية مع دالات النوعية . عند كل نقطة توقف ، تتجدد المحاصرة (ن) وأخيراً ، يتم تحقيق تفريغ صـادر من الخلايا العصبية المحركة للمسلك الشفوي . لنتساءل الآن اذا خسر الأنا خلال هذه العملية المتعاقبة ، كمية (ك نَ) مهمة ، أو اذا كان التصريف من حيث النشاط التأملي ضعيفاً نسبياً . هناك واقع يوحي لنـا هذا الجواب : إن تيـار حالات الإعصاب الشفوية هو بالطبع ضعيف جداً أثنـاء العملية المتعاقبة المختصة بالتفكير . ليس أكثر من تحركنا **بشكل حقيقي** عندمـا نتصور الصورة المحركة ، ومن كلامنا بالتفكير **بشكل حقيقي** . لكن الفرق بين التخيل والتحرك الذاتي ليس سوى من الصنف الكمي ، كما أمدتنا ذلك تجربة « قراءة الأفكار » . عندما نفكر تفكيراً عميقاً ، نتكلم بوجه الاحتمال ، بصوت عـال . ولكن كيف استطاعت تفريغات ضعيفة لهذه الدرجة أن تتولد مـا دامت لا تنساب

---

(١) تمييز Reconnaissance أي تمييز ذكريات بالنسبة الى الزمان الماضي.

الكميات القليلة (ك نَ) وما دامت الكميات الكبيرة تملك المستوى المنخفض جملة بواسطة الخلايا العصبية المحركة ؟

يبدو من المحتمل بأن الكميات المستعملة في الانتقال التي تنفذ أثناء العملية المتعاقبة التأملية ، ليست مهمة ، إذ أن تصريف الكميات الكبيرة (ك نَ) يعني ، في البداية ، خسارة للأنا ولزم أن تكون الخسائر التي يتلقاهـــا الأنا صغيرة بقدر الإمكان . في الواقع ، إن الكمية (ك نَ) يجب أن تُستعمل عند « الفعل النوعي » الذي هو ملحٌ للغاية . ثانياً ، كمية كبيرة (ك نَ) تجتاز تزامنياً عدة مسالك ترابطية ، ذاك ما يمنع الوقت عن المحاصرة التأملية ويسبب تصريفاً مهماً . ينتج عن ذلك بأن الكميات (ك) التي تنساب أثناء العملية المتعاقبة الذهنية ، بلا شك ، لزم أن تكون ضعيفة . مهما يكن ، يكون الادراك الحسي والذاكرة محاصرتين بشدة وبالضرورة بمقتضى فَرَضياتنا ، أثنـــاء العملية المتعاقبة التأملية وانهما أشد توتراً من الادراك الحسي البسيط . أضف الى ذلك ، أن درجات الانتباه هي ذات شدة توترية متغيرة ، ولا يتم تفسير ذلك إلا بواسطة تغيير درجـة تقوية الكميات التي تحاصِر (ك نَ) . ينتج عن ذلك بأن صعوبة ملاحقة (أي مراقبة) هـــذه العملية المتعاقبة لزم أن تكون متناسبة مع الانتباه ، افتراض لا يجوز أخذه بعين الاعتبار نظراً لخاصيته غير الملائمة .

نحن إذن تجاه واقعين ذي مظهر متناقض : محاصرة شديدة الفعالية وانتقـــال ضعيف . اذا رغبنـــا وضعها بشكل انسجامي ، نضطر الى الرجوع الى الفرصـــة التي أمكن تسميتها الحالة المرتبطة بالخلايا

العصبية[1] الحالة التي رغم المحاصَرة المميَّزة ، لا تسمح بمرور سوى تيار ضعيف . ستظهر هذه الفرضية بلا شك أكثر قابلية للتصديق اذا اعتبرنا بأن المحاصرات المجاورة تؤثر بشكل فعال على تيارات الخلايا العصبية . والحال أن الأنا بذاته هو جملة من الخلايا العصبية من هذا النوع التي تحتفظ بمحاصراتها (أريد أن أقول التي تكون مرتبطة) ، هذا الواقع غير ناتج بالطبع سوى من التأثير الذي تمارسه بعضها على بعض . هكذا نستطيع أن نتخيل بأن الخلية العصبية الحواسية المحاصَرة المختصة بالإنتباه ، هي بحكم هذا الواقع ، منضمة لوقت وجيز داخل الأنا وتكون عندها خاضعة لنفس التسلسل المختص بكميتها (ك نَ) الذي يخص الخلايا العصبية الأخرى المتعلقة بالأنا . عندما تزداد المحاصرة ، تنقص كمية (ك) الخاصة بالتيار ويمكنها أن لا تزداد بالضرورة . ربما جاز لنا الافتراض بحكم هذا التحديد ، بأن الكمية الخارجية (ك) تتوصل الى الانسياب بحرية ، بينما تظل المحاصرة المختصة بالانتباه ، مرتبطة ، حالة من الأشياء ليست دائمة بالقوة وهذا شيء طبيعي .

وهكذا تتميز العملية المتعاقبة التأملية من الناحية الآلية ، بهذه الحالة المرتبطة حيث تكون المحاصرة الشديدة منسقة مع تيار ضعيف . من الممكن أن يكون التيار متوازياً للمحاصرة ، عند بعض العمليات المتعاقبة

---

(١) إن التمييز القائم بين الطاقة النفسية « المرتبطة » أو « السكونية » من جهة ، والطاقة « الحرة » أو « المتحركة » من جهة أخرى ، يشكل أحد المدلولات الاساسية لفرويد . يعود الى ذلك في مؤلفاته اللاحقة . مثلاً في « تفسير الاحلام » الفصل السابع ، ينسب هذا التمييز الى بروير الذي تحدث عنه في القسم الثاني من مساهمته النظوية في « الدراسات عن الهستيريا » ، هذا المؤلف الذي نشر قبل أشهر معدودة من كتاب « المختصر الاجمالي » الذي كتبه فرويد عام ١٨٩٥ .

الأخرى – عند العمليات المتعاقبة ذات تفريغ غير معرقل .

آمل بأن فرضية الحالة المرتبطة من هذا النوع ستُحتمل من الناحية الآلية [1] . مع هذا أود توضيح قليلاً النتائج النفسانية . لأول وهلة ، يبدو بأن حالتين متناقضتين داخليتين تتجابهان . اذا اعتبرنا الأمر التالي: عند الحالة « المرتبطة » ، فقط تظل الكميات الضعيفة (ك) مخصصة للنقل لدى محاصرة مشابهة ، كيف نفسر انضمام الخلايا العصبية الجديدة ، أي مسيرة الكميات الكبيرة خلال هذه الخلايا ؟ وحتى خارج هذه الصعوبة ، كيف نتصور طريقة تكوين الأنا المركّب على هذا المنوال ؟

نجد أنفسنا فجأة تجاه أكثر المسائل تعقيداً ، وهو تكوين الأنا ، أي عقدة [2] الخلايا العصبية المرتبطة بقوة بمحاصراتها والتي تشكل هكذا ، لمراحل وجيزة من الزمن ، عقدة ذات مستوى ثابت . إن الطريقة الأكثر تثقيفاً لمعالجة هذه المسألة هي دراسة الناحية الوراثية . يتكون الأنا أصلاً من خلايا نووية التي تتلقى بواسطة مسالك التوصيل كميات داخلية التكون (ك نَ) والتي يتفرغ منها بواسطة التحويل الداخلي . « إن تجربة الإشباع » (راجع الفصل السابق)

---

(١) الآلية أو الميكانيكية Mécanique أ) نسبة الى قوانين الحركة والتوازن . ب) بشكل آلي Machinal أو عفوي أو بلا تفكير : مثلا حركة جسمية آلية . ونعني بالآلي عند المعنى (ب) : الحركة الطبيعية حيث لا توجد أية علاقة للارادة . ج) الذي يتصرف فقط استناداً الى قوانين الحركة والقوى (عكسه « الناحية الكيماوية ») مثلا : العمل الميكانيكي للرياح .

(٢) عقدة Complexe أ) من الناحية الكيماوية : جسم تم الحصول عليه بواسطة تجميع جزيئات عديدة . ب) من ناحية التحليل النفساني : حالة ترابطية للمشاعر ، للذكريات غير الواعية ، المزودة بقدرة عاطفية .

تسبب حـــالة التداعي لهذه النواة مع إدراك حسي (صورة الشهوة) ودالة الحركة (العنصر الانعكاسي للعمل النوعي . إن تربيـــة وتكوين هـــذا الأنا البدئي [1] ، يتولدان عند حالات حيث يحصل تكرار للحاجة : حالات التوقع . يتعلم الأنا أولاً أن لا يحاصر الصوَر المحرّكة (مع التفريغ المتلاحق) مـــا دامت بعض الشروط غير مترسخة من ناحية الإدراك الحسي ، ثم يتعلم أن لا يحاصِر بالمثل تصورات الشهوة مـــا فوق درجة معينة ، لأن من غير ذلك ، سيصبح فريسة خطأ هلـوَسي . اذا احترم هذين التقييدين [2] وركز انتبـــاهه على المدارك الحسية الجديدة ، جـاز له أن يأمل بالحصول على الاشباع المرغوب . من الواضح بأن التحديدات التي تمنع الأنا عن محاصرة مـا فوق درجة معينـة ، صورة الشهوة والصورة المحرّكة ، هي سبب تراكم الكميات (ك نَ) داخل الأنا وتجبرها فـيما يبدو على نقل كمياتها (ك نَ) الى الخلايا العصبية سهلة البلوغ ، في حدود معينة .

إن الخلايا العصبية النووية المحاصَرة بشكل مُفرط تنتهي أخيراً الى مسالك التوصيل التي تخص داخل الجسم والتي هي ممتلئة بـلا توقف بكمية (ك نَ) ، وتصبح قابلة للنفوذ . مـا دامت الخلايا العصبية مدّات لمسالك التوصيل هذه ، لزم أن تظل أيضاً مليئة بكمية (ك نَ).

---

(١) التزمنا كلمة البدئي Originel وأصلي Original وذلك للتمييز من حيث المعنى : البدئي أي في البدء وأصلي أي مبتكر . وجـــاز التشابه في المعنى ولزم التنويه للتوضيح . (ف. ض.)

(٢) تقييد أو تقليل أو تقصير Restriction مغالطة ذهنية : تقوم على اعطاء العبارة Restriction mentale معنى آخر غير الذي يفهمه المخاطب .

هذه الكمية الأخيرة ، تنساب تناسبياً حتى المقاومات التي تصادفها في مسيرتها ، الى أن تصبح المقاومات التالية أكثر أهمية من جزء الكمية (ك نَ) التي هي موضوعة تحت تصرف التيار . عندها ، تكون كل المحاصَرة في حـــالة من التوازن ، محتفظة من ناحية بواسطة حدّين مفروضين على حالة قدرة التحرك وعلى الشهوة ، من ناحية ثانيـة ، بواسطة المقاومة التي تجابه الخلايا العصبية الأكثر خارجية ومن الناحية الداخلية بواسطة الضغط الثابت لمسالك التوصيل . عنـــد داخل بلية الأنا ، تكون المحاصرة غير موزعة بشكل متساو ولا تستوجب سوى التساوي التناسبي ، أي بالنسبة الى العلاقـة مع التسهيلات . (راجع الفصل السابق : « العمليات المتعاقبة الأولية ، النوم والأحلام ») .

عندما يرتفع مستوى المحاصرة داخل نواة الأنا ، يصبح الأنا قادراً على تمديد حقـله المختص (بالعمل) ؛ عندما ينخفض ، يتقلص الأنا محورياً [1] . في حـــال وصول الأنا الى مستوى معيّن والى امتداد معيّن ، لن يعترض التنقلات أي حاجز ، هذه التنقلات التي تتولد في منطقة محاصراته .

بقي أن نعلم الآن من أين ينبثق التحديدان اللذان يضمنان لمستوى الأنا ديمومته وبالاخص ، من أين يصدر هذا التحديد [2] للصور المحرّكة ، الذي يمنع التفريغ . نجد أنفسنا هنا أمام مشكلة حاسمة حيث ينوط بها

---

(١) محورياً Concentriquement من Concentrique أي مشترك بالمركز . متمركز ، أي صفة الخطوط المنحنية والمساحات التي تملك ذات المركز . والفعل ركز Concentrer بالمعنى المجازي : اتجه نحو غرض وحيد مثلا : ركز طاقته .

(٢) التحديد Limitation .

إدراك التعضية . إن الشيء الوحيد الذي يمكننا قوله هو الأمر التالي : عند المرحلة حيث كانت حالات التحديد غير موجودة أيضاً وحيث كان يتم تحقيق التفريغ المحرك منذ ظهور الشهوة ، لا تتولد اللذة المعتمد عليها ويسبب التوليد المستمر المختص بالمنشطات الداخلية التكون ، عند النهاية ، حـــالة الكدر . فقط ، هذه المجازفة للكدر المرتبطة بتفريغ باكوري ، من الممكن أن تتوافق مع حالات التحديد التي ندرسها . أثناء التكوين ، تأخذ التسهيلات على عاتقها قسماً من المهمة [التي تتعلق بترسيخ حالات التحديد المذكورة] . إنما هناك واقع ما يزال قائماً : إن الكمية (ك نَ) في الأنا ، لا تحاصِر على الفور الصور المحركة . بالطبع ، اذا تم تنفيذ المحاصرة على الفور ، فيتولد الكدر بشكل فجائي .

كل مـا وصفته « باكتساب بيولوجي » للجهاز العصبي ، انه ممثّل ، حسب اعتقادي ، بواسطة تهديد للكدر من هـــذا النوع . بفضل هذا التهديد ، لن تكون الخلايا العصبية القادرة على توليد الكدر ، محاصَرة . ذاك مـا يشكل الدفاع الاولي ، نتيجة مفهومة جيداً مختصة بميل بدئي للجهاز العصبي . يظل الكدر المقياس التربوي الوحيد . ولكن كيف نقدم تفسيراً من النوع الميكانيكي للدفاع البدئي — لحـالة عدم المحاصرة الناتجة عن تهديد للكدر ؟ فهنا ، اني اعترف ، يوجد سؤال لا أستطيع الجواب عنه .

من الآن فصاعداً ، لن أحاول البحث عن تفسير ميكانيكي لهذه القوانين البيولوجية وسأعلن عـن نفسي بأني أكتفي بالتوصل الى امكانية تقديم وصف واضح وأمين لهذا التطور .

بلا شك ، يوجد قانون بيولوجي ثان ، مشتق من العملية المتعاقبة

المختصة بالتوقع ، واستناداً اليها يرتكز الانتباه على دالات النوعية (لأنها تخص المدارك الحسية القادرة على إثارة بعض الاشباع) ويمر الشخص من هـذه الدالات المختصة بالنوعية الى الادراك الحسي الذي ظهر بشكل فجائي . باختصار ، يرجع منشأ سير أجهزة الانتباه الى قانون بيولوجي من هذا النوع الذي يعبِّر انتقال حالات المحاصَرة للأنا (١) .

ربما سنعترض فيما يتعلق بالأمر التالي : ان مثل هذا السير للأجهزة الذي يعمل بفضل دالات من النوعية ، هو جهاز غير ضروري فعلاً . جاز القول بأن الأنا تعلَّم بيولوجياً من نفسه ، أثنـاء حالاته الخاصة بالتوقع ، أن يحاصر الميدان الحواسي عوضاً من أن ينقاد فقط بواسطة دالات النوعية . ولكن يمكن لسببين اثنين تبرير سير أجهزة الانتباه : ١) إن مدار دالات التفريغ الصادر من الجهـاز W (ɯ) هو ، بكل وضوح ، أصغر ويتضمن أقل عدداً من الخـلايا العصبية بالنسبة لمدار المدارك الحسية أي بالنسبة لمجموع لِحاء الدماغ الخاص بالجهاز (نَ) المرتبط بالأعضاء الحسية . بالنتيجة ، يضع الأنا اقتصاداً ضخمـاً لدى محاصرة ليس الادراك الحسي ولكن التفريغ فعلاً ؛ ٢) إن دالات التفريغ أو النوعيـة تشكل قبل كل شيء ، دالاتِ للحقيقية (٢) حيث يُفسح المجال لتمييز بين حالات المحاصرة المختصة بالمدارك الحسية الواقعية والمدارك الحسية الخاصة بالشهوات . هكذا نرى استحالة الاستغناء عن

---

(١) تابع فرويد عرض هذه الافكار (ب ١٩١١) وهو ينسب الى الانتباه مهمة «الاكتشاف دورياً العالم الخارجي كي تكون الوقائع التي يتم حدوثها معروفة قبلا وذلك لدى الظهور المفاجىء لحاجة داخلية ملحة » .

(٢) الحقيقية Réalité .

سَير أجهزة الانتباه ، الذي بفضله ، عند كل حالة ، يحاصِر الأنا الخلايا العصبية حيث تم ظهور المحاصَرة قبلاً .

هكذا يمكننا صياغة القانون البيولوجي للانتباه بالشكل التالي ، بالنسبة للأنا : **عندما تظهر فجأة دالة للحقيقية ، عندها لزم ان تكون المحاصرة الحواسية الحاضرة محاصرة بشكل مفرط** (Surinvesti) .

ذلك هو القانون البيولوجي الثاني ، إذ أن القانون الأول يخص الدفاع الأولي .

[٢]

ما قلناه يعطي فكرة عامة عن سير الأجهزة الذي عرضناه ، بحيث لا يمكن للكميات الخارجية أن تتمثل بواسطة (ك نَ) (الكميات النفسية) . إن وصف الأنا وتغييراته ، كما قدمنا ذلك ، يبين لنا بأن مستوى [المحاصَرة] لا يملك هو أيضاً ، أية علاقة مع العالم الخارجي واذا حصل أن ارتفع أو انخفض ، فذلك الواقع لا يسبب أي تغيير لصورة العالم الخارجي . مع العلم بأن هذا التصور قد ترسخ بمقتضى التسهيلات ؛ يجب أن نستخلص بأن التغييرات العامة للمستوى لا تؤثر اطلاقاً عليها . لقد ذكرنا قبلاً المبدأ الثاني ، مع العلم بأن الكميات الصغيرة هي قابلة للتنقل بشكل أسهل عندما يكون المستوى مرتفعاً ولا يتم ذلك عندما يكون منخفضاً . فهذه هي بعض النقاط للحفظ اذا أردنا محاولة وصف الحركات المختصة بالخلايا العصبية المميزة والتي لا نملك أيضاً في صددها سوى فكرة ضعيفة .

لنرجع الى وصف العمليات المتعاقبة العقلية للمراقبة أو لملكة الادراك . إنها تختلف عن العمليات المتعاقبة المختصة بالتوقع . بحيث أن المدارك

الحسية لا تهم المحاصرات المتعلقة بالشهوة . هنا ، يكون إنتباه الأنا منجذباً بواسطة الدالات الأولية للحقيقية ، نحو فلك الادراك الحسي للقيام بالمحاصرة . إن تيار حالات التداعي للكمية (ك) المجلوب بواسطة المدارك الحسية ، يمر خلال الخلايا العصبية المحاصَرة قبلاً وإن (ك) (أي الكمية التي تخص الخلايا العصبية (و) والتي تتنقل على طول هذه الخلايا العصبية ، يخلى سبيلها تكراراً . أثناء هذه المسيرة لحالات التداعي تتولد دالات النوعية الخاصة (باللغة) . هكذا يصبح تيار حالات التداعي واعياً وقادراً على أن يتوالد .

مرة أخرى ، نستطيع أن نتساءل حول الفائدة التي نجنيها من دالات النوعية . يكمن تأثيرها الوحيد في حثّ الأنا لإرسال محاصرة نحو المكان حيث تظهر فجأة محاصَرة أُخرى أثناء حالات التداعي . ولكن ليست هي التي تزود هذه الكميات التي تحاصِر (ك نَ) ، على الأكثر ، فهي تقدم مساهمتها . اذا كان الأمر كذلك ، فإن الأنا قادر على ترحيل محاصرته على طول تيار الكمية (ك) ومن غير مساعدتها .

هنا ، بلا شك ، يتولد ذلك ، ويجدر الأخذ بعين الاعتبار دالات النوعية . يُستحسن التأكيد على القانون البيولوجي الخاص بالانتباه (المذكور سابقاً) ينتج عن الادرك الحسي ولا يطبّق أولاً إلا على دالات الحقيقية . إن دالات التفريغ بواسطة المسلك الشفوي هي أيضاً ، دالات مختصة بالحقيقية ، بحقيقة التفكير وليس بالحقيقية الخارجية[1] ،

---

(١) أكد فرويد هذا التمييز مرات عديدة في مؤلفاته اللاحقة (راجع مثلا الصفحات الاخيرة لكتاب « تفسير الأحلام ») .

ولكن لم يتم ترسيخ أي قانون بيولوجي من هذا النوع عند حالة هذه الدالات المختصة بالحقيقية التأملية ، إذ لا يهدد أي كدر بصورة أكيدة، المخالفات المحتملة . إن الكدر الناتج عن عيب لملكة الادراك ليس مؤثراً بقدر الكدر الذي ينتج عن جهل العالم الخارجي ، رغم أنهما يتشابهان أصلاً . يوجد في الواقع نوع من العملية المتعاقبة الذهنية للمراقبة بحيث يحصل خلالها إهمال من قبل دالات النوعية أو لا تظهر فجأة إلا بطريقة مبعثرة . تصبح العملية المتعاقبة المختصة بالتفكير ، ممكنة ، بمجرد أن يتبع الأنا تلقائياً مع محاصراته ، تيار حالات التداعي . إن هذا النوع من العملية المتعاقبة ، الذي هو غير طبيعي اطلاقاً ، فهو من بعيد الأكثر تكراراً ويشكل أسلوبنا في التفكير المألوف واللاواعي ولكن أحياناً مع انقطاع للأفكار داخل الوجدان الواعي ، ذاك مـــا يمكن وصفه بالتفكير الواعي المزوّد بحلقات وسطية لا واعية ولكنها قادرة على أن تصبح واعية [1] .

كيفما كان الأمر ، إن دالات النوعية ذات أهميـــة أكيدة بالنسبة للتفكير . في البداية ، إنهـــا تقوي دالات النوعية المدركة حسياً ، المحاصرات داخل سلسلة حالات التداعي وتضمن عمل الانتبـاه التلقائي الذي – لا نعرف كيف – يوجد بالطبع مرتبطاً بظهور هذه المحاصَرات . أضف الى ذلك – وهذه النقطة تبدو أكثر أهمية أيضـاً – ان الانتباه الذي يرتكز على دالات النوعية يضمن الانصاف أثناء حالات التداعي . إنها مهمة عسيرة بالنسبة للأنا عوضاً من الالتزام الكلي ضمن « البحث الخالص » . يظل الأنا تقريباً على الدوام مزوّداً بحـالات المحاصَرة

---

(١) أول وصف لفرويد يتعلق بالعمليات المتعاقبة التأملية الواعية مسبقاً préconscients .

المختصة بالشهوات والأهداف ، ويظل يؤثر الحضورُ أثناء «حالات السعي»، كما سنرى ذلك لاحقاً، على مجرى حالات التداعي ويشوّه المعرفة المختصة بالمدارك الحسية . والحال أن الحماية الأكثر فعالية ضد هذه الأخطاء الخاصة بالتفكير تجد نفسها مستعملةً عندما يوجه الأنا الكمية (ك نَ)، المتحركة بصورة طبيعية ، نحو منطقة غير قادرة على التوالد (أي غير قادرة على تحريض) مثل هذا الانحراف لمجرى حالات التداعي . توجد وسيلة فعالة واحدة : يجب أن يتجه الانتباه نحو دالات[1] النوعية ، تلك الاسباب لا تشكل التصورات الخاصة بالهدف . بالعكس ، تعطي محاصرتها أهمية كبرى خلال حالات التداعي وهي تضاف الى الكمية التي تحاصِر .

بهذا إن التفكير الذي يتضمن محاصرة للدالات المختصة بالحقيقية التأملية او للدالات الشفوية هو الشكل الارقى والاضمن فيما يخص العملية المتعاقبة الذهنية المختصة بملكة الادراك .

نعلم بأن توالد دالات التفكير ذو قيمة لا يتنازع فيها . بهذا ، جاز لنا أن نأمل باكتشاف وسيلة ما ، لتأمينها . في الواقع ، إن دالات التفكير عكس دالات الحقيقية ، لا تظهر عفوياً من غير مساهمة الجهاز (نَ) . تفيد الملاحظة بأن هذه الوسائل لا تملك لدى كل العمليات المتعاقبة التأملية ، فعالية تساوي الفعالية التي نبينها في العمليات المتعاقبة للحالات الاستقصائية . كي تظهر فجأة دالات التفكير ، يجب

---

(١) بالمعنى الطبي : سبب دافع (لمعالجة) Indication أو المعالجة الملائمة مثلا فيما يتعلق بمادة مقاوم الجراثيم بخصوص معالجة مرض ما . وارتأيت هنا ترجمة الكلمة بدالة استناداً الى النص .

أن تكون محاصَرة إطلاقاً بواسطة الانتباه ، وعند هذه الحالة الأخيرة ، انها تظهر بحكم القانون الذي يتضمن ما فحواه : يبدو التوصيل أفضل بين خليتين عصبيتين مرتبطتين ومحاصرتين تزامنياً . غير أن « الانجذاب» الذي تثيره المحاصرة المسبقة لإشارات التفكير ، غير مزوّد بقدرة على المقاومة ضد تأثيرات أخرى إلا في حدود معينة . هكذا مثلاً، إن اية محاصرة (مختصة بهدف او بحالة عاطفية) عند جوار تيـــار حالات التداعي ، تنافس المحاصرة المسبقة المختصة بالانتباه وتميل نحو جعل هذا التيار لا واعياً . وتبين التجربة أيضـاً بأنه يتولد نفس التأثير عندما تكون الكميات المستعملة مهمة ، أثناء حالات التداعي لأنهـــا تضخمه وتزيده سرعة ، نتيجة لذلك . نسمع عادة من يقول بأن شيئاً ما قد حصل بسرعة فائقة لدرجة لم نلاحظه – ذاك أمر صحيح تمامـاً ؛ كل واحد يعلم ايضاً ، بأن التأثرات الاولية (affects) قادرة على إحداث اضطراب للمجيء الطارىء لدالات التفكير .

كل ذلك يقودنـا الى التزام اقتراح جديد يتعلق بالتصور الميكانيكي للعمليات المتعاقبة النفسية ، مع العلم بأن مجرى حالات التداعي عندما لا يكون مصاباً انفعالياً بواسطة مستوى [المحاصَرة] من الممكن أن يتغير بواسطة أهمية الكمية المتدفقة (ك) . بشكل عام ، **تختـــار كمية كبيرة (ك) في شبكة التسهيلات مسلكاً مختلفـاً عن المسلك الذي تسلكه الكمية الضعيفة** . لا يصعب علينا ، كما يبدو ، توضيح هذا الواقع . يوجد لكل حاجز ، ارتفاع [1] معين بحيث لا يمكن للكمية (ك)

---

(١) ارتفاع Seuil من الناحية النفسانية : أ) الحد الادنى من المدرك . ب) عتبة الشعور: المستوى الذي تبـــدأ عنده الخبرة في الظهور . ج) توتر الحد الادنى للحث Seuil d'excitation .

ـ وبالحري لأي قسم من هذه الكمية ـ أن تصل الى امكانية المرور . عندما تكون كمية (ك) ضعيفة جداً ، تتوزع على طول مسلكين أخريين ذات تسهيلات ملائمة . لدى تقوية الكمية (ك) ، يقدّم المسلكُ الاول المرورَ ويضمن بالإضافة الى ذلك ، نقل أجزاء هذه الكمية ؛ زد على ذلك ، إن المحاصرات التي تتخطى حدوداً أصبحت صالحة للاجتياز، عندها يمكن ادراكها حسياً . لكن عاملاً آخر يكتسب أحياناً من الاهمية .

نستطيع أن نعتبر بأن المسالك التي تجتاز الخلايا العصبية ليست كلها كذلك قابلة للتأثر [1] عند كمية معينة (ك) ونقول عن الفرق الذي تشكله « اتساع المسلك » . هذا الاتساع هو بذاته مستقل عن المقاومة ، إذ هذه الاخيرة من الممكن أن تتبدل بواسطة الكمية التي تنساب (Abq) [2] ، بينما الاتساع هو بذاته ، يبقى ثابتاً . لنفترض الآن الامر التالي : اثناء ازدياد الكمية (ك) ، يتم فتح المسلك بحيث يمكن إدراك الاتساع حسياً ، نرى عندها بأن انسياب الكمية (ك) هو متغير أحياناً بشكل اساسي ، بواسطة الكمية (ك) المتدفقة . يبدو بأن التجربة اليومية تؤكد هذه النتيجة .

هكذا ، يبدو بأن ظهور دالات التفكير مرتبط بمرور الكميات (ك) الضعيفة . لا نستنتج بـأن المرور الأخرى لزم أن تظل بالضرورة

---

(١) قابل للتأثر ، قابل للعدوى Réceptif . الطفل ، بخاصة ، قابل للتأثر بالتلقين Réceptif à la suggestion .

(٢) بالالمانية (أبلوفكوانتيتات) Ablaufquantität .

لا واعية – إذ يمكن توليد الحالة الواعية بشكل مختلف عن طريقة القدوم المباغت لهذه الدالات .

كيف نتصور إذن بوضوح التفكيرَ الذي لا يصبح واعياً وجدانياً إلا بواسطة التواتر[1] ، بواسطة التطفل المفاجىء داخل الوجدان الواعي ؟ إن تفكيرنا العادي المجرد من الغاية، رغم أنه مصحوب بمحاصرة مسبقة وبانتباه تلقائي، لا ينسب أية قيمة الى دالات التفكير. زد على ذلك ، لا شيء يفسح لنا المجال للبرهنة ونحن نرتكز على البيولوجيا ، بأن هذه الدالات هي لازمة ضمن العملية المتعاقبة المذكورة . مع ذلك ، انها تظهر : ١) عندما ينتهي الانسياب الذي ينفّذ بلا صدمات أو يصطدم بحاجز ما ؛ ٢) عندما يوقظ تصوراً ، الذي يثير ، لأسباب أخرى ، دالات من النوعية ، أي حالة واعية وجدانياً . لكني أتوقف هنا عن هذا البحث .

[٣]

طبعاً تتجه أنواع أخرى من العمليات المتعاقبة التأملية ليس نحو هدف لا مبال من ملكة الادراك ، ولكن نحو هدف عملي . تزوّدنا حالةُ التوقع ، حيث يولد بعامة التفكير ، مثالاً لهذا الطراز الثاني من التفكير . هنا يركّز الاهتمام بقوة على الشهوة ، بينما محاصرة ثانية ، من صنف حواسي ، تظهر فجأة وتجذب الانتباه . ولكن ليس الهدف من ذلك اكتشاف الى أين تنتهي بشكل عام ، إنما التوصل الى معرفة المسالك التي بواسطتها يقود نحو تنشيط محاصرة الشهوة التي تظل مرتبطة،

---

(١) تواتر Intermittence . ب) هدأة بين نوبتين (من الحمى) ، تقطع .

بين حين وآخر، هذا النوع من العملية المتعاقبة التأملية ، هو من الناحية البيولوجيـة ، الأكثر باكورية ، من الممكن أن يتمثل بسهولة بمقتضى فرضياتنا . لنفترض بأن (V +) يمثل الشهوة المحاصَرة بشكل خاص ، (W) الادراك الحسي الواجب اتبـاعه ، يكون أولاً تأثير تثبيت [1] الانتباه منوطاً بجعل الكمية (ك نَ) أن تمر في الخلية العصبية الأفضل تسهيلاً (a) ؛ من هنا ، انها تمر مرة اخرى بواسطة افضل مسلك ، بعيداً عن حضور المحاصرات الجانبية المضطربة . لنتخيل ثلاث مسالك انطلاقاً من (أ) ... ، مصنفة استناداً الى درجتها من التسهيل، استناداً الى d , c , b . إذ وجد (د) بجوار محاصرة الشهوة v + ، نتج عند ذلك ، رغم التسهيلات ، انسياباً (ك نَ) ليس نحو (b و c) ، ولكن نحو (د) ومن هنا ، نحو (v +) . عندها ، يبدو بأننا نبحث عن المسلك v + ... d .. a ... W . يوجد مبدأ قد تعرفنا اليه منذ عهد طويل، يضبط هنا طريقة العمل: إن المحاصرة تغيِّر اتجاه التسهيل، فتعترض بهـذه الطريقة ، الحالة الأخيرة . بالنتيجة ، بإمكان المحاصرة الجانبية تغيير تيار الكمية (ك نَ) . مع العلم بأن المحاصرات قـد تبدلت ، فيظل الأنـــا حر التصرف من حيث تغيير المسيرة انطلاقاً من (W) لتوجيهها نحو أي هدف محاصَر .

عندما نتكلم على تثبيت للهدف ، إننا لا نفكر بتثبيت منتظم [2] ، شأن الذي يؤثر بميدان بكامله عند حالة الانتباه . إننا نفكر بشحنة متزايدة وهي ترتفع الى ما فوق مستوى الأنا . لزم علينا على الأرجح

---

(١) تثبيت Fixation .

(٢) Uniforme .

اعتبار في هـــذا الطراز من التفكير مع محاصرة الهدف ، انطلاق كمية (ك نَ) في نفس الوقت بالنسبة لـ (⋁ +) بحيث ان يتأثر كل مجرى حالات التداعي الخاصة بـ (W) ليس فقط بـ (⋀ +) بالذات ، ولكن أيضاً بالنقاط الاخرى المصابة . عند حالة كهذه ، يكون المسلك المنطلق من (⋀ +) معروفاً ومثبتاً ، انما المسلك الآتي من ... a ... W لزم كشفه أيضاً . كما هو الأمر بالنسبة للواقع ، يحتفظ الأنا بمحاصرات خاصة بالهدف – وغالباً ما تكون محاصرات عديدة في آن واحد – يتضح لنا كم يبدو لنا صعباً أمر ملاحقة التفكير ، الفكرة التأملية المحَضة والامكانية أيضاً ، عند حالات التفكير العملي ، لرؤيتها وهي تلتزم المسالك المختلفة ، في اوقات مختلفة ، وفي ظروف مختلفة ولدى افراد مختلفين .

نستطيع ايضاً ان ندرك الصعوبات التي تعترض التفكير عندما يتعلق الأمر بالتفكـُّر[1] العملي ؛ تتيح لنا تجربتنا اليومية التعرف اليها . لنأخذ مرة أخرى مثالنا الاول ، حيث ينساب التيار (ك نَ) بصورة طبيعية نحو (ب و ج) بينما يتميز (د) بارتباطه الوثيق بالمحاصرة الخاصة بالهدف أو الافكار التي تنساب منها . من الممكن ان يندفع عمل التسهيل بقوة لمصلحة (ب) ... فيتفوق بكثير على الانجذاب الذي يمارسه د ... + ف . رغم هذه الحالة وكي يكون مجرى حالات التداعي قادراً على أن يكون موجهاً نحو ⋀ + لزم أن تكون المحاصرة الخاصة بـ ⋁ + والتصورات التي تتولد منها ، متزايدة . ربما استوجب ايضاً تعديل الانتباه الذي يرتكز على W ، كي يجوز بلوغ درجة أعلى أو أقل من « الارتباط » ، كذلك

---

(١) التفكر Réflexion .

بلوغ مستوى من التيار أكثر فعالية بالنسبة للمسيرة د .... + ف[1] .
إن المجهود المطلوب لمنع الكمية (ك) من الالتزام في افضل التسهيلات ، ولجذبها نحو مسالك مطروقة بشكل سيء لكنها اقرب من سواها بالنسبة للهدف المحاصَر ، يوافق الصعوبات التي تعترض التفكير .

إن دور اعراض النوعية يختلف قليلاً ، في التفكير العملي عن الدور الذي تلعبه الاعراض في التفكير التأملي . إن اعراض[2] النوعية تضمن وتحدد مجرى حـالات التداعي من غير أن تكون لازمة (أو حتمية) البتة . اذا استبدلنا التصورات والخلايا العصبية المنعزلة بعُقد[3] للتصورات والخلايا العصبية ، نجد أنفسنا تجـاه تعقيد للتفكير العملي ، من المستحيل استدعاءَه الى الذهن[4] . عندها ندرك بأن استنتاجاً سريعـاً هو أمر مرغوب في مثل هذه الحالات (انظر الى القسم ٤) . إنما بعامة ، لم تظهر الاعراض جميعها ، بل أثر حضورها المفاجىء من حيث إبطاء وتعقيد مجرى حالات التداعي . نادراً ما تظهر اعراض النوعية بشكل مفاجىء ، في المكان حيث تتكرر مسيرة ادراك حسي خاص نحو محاصرة متعلقة بهدف خاص وحيث تكون هذه المسيرة مقولبة[5] .

إن غـاية التفكير العملي هي الذاتية ، أي اختراق المحاصرة المنقولة (ك نَ) في محاصرة الشهوة التي صمدت بشدة . من الوجهة البيولوجية

---

(١) d ... + V .
(٢) اعراض indices .
(٣) عقد Complexes فسرنا مدلولها النفسي سابقاً .
(٤) Représenter .
(٥) مقولبة stéréotypé .

المحضة ، تهدف النتيجة الى وضع حد للحاجة الى التفكير . لقاء ذلك ، يصبح ممكناً هذا الاعصاب الكامل للصور المحرّكة التي لُمست أثناء مرور [الكمية] ، عندما تشكّل هذه الصور قسماً مسموحاً بـه ومساعداً « للعمل النوعي » . والحال أنه اثناء المرور ، لا يتم تحقيق محاصرة الصور المذكورة إلا نتيجة « لارتباط » وتكون العملية المتعاقبة التأملية منطلقة بواسطة ادراك حسي (W) الذي لا يمثل سوى صورة ذاكرية . ينتج عن ذلك بأن العملية المتعاقبة هـذه ، قادرة على الافلات في آن واحد من التوقع ومن الحقيقية وبإمكانها الاتجاه نحو ذاتية من غير أن تتلقى تغييراً . هكذا ، انطلاقاً من تصور بسيط وحتى بعد إكماله ، لا تنتهي الى وسيلة إثبات [1] ولكن الى توليد المعرفة العملية عنـد اللزوم . في الواقع ، تبين التجربة بأنه من الافضل دائمـاً تحريك [2] هذه العملية المتعاقبة التأملية ذات صنف عملي ، من غير انتظار الحقيقية كي تحضر لفرض التحرك الانطلاقي .

آن الأوان لحصر مدى أهمية العَرض الذي قمت به (على الصفحات السابقة) بحيث تجعل اعراضُ النوعية وحدها ، وفقاً لذلك ، من ذكرى العملية التأملية ، أمراً ممكناً ، لأنه اذا كان الامر خلافاً لذلك ، لن تكون آثارها مميّزة عن الآثار المتروكة من جانب التسهيلات الحواسية ، الحق يقال بأنه لا يجب تغيير الذكرى الحقيقية بواسطة التأملات الفكرية التي توحيها لها ، ولكن مما لا ينكر من جهة ثانية ، إنه مجرد التفكير بشيء ما يترك آثاراً بينة بشدة على التأملات الفكرية اللاحقـة التي تخص ذات

---

(١) acte .

(٢) تحريك mettre en branle .

الموضوع ونتساءل اذا كان التفكير وحده الذي يُصطحَب بأعراض النوعية وبحالات واعية وجدانياً ، قادراً على الوصول الى مثل هذه النتائج . بلا شك ، توجد تسهيلات للتفكير بحيث ما تزال تقاومها تسهيلات خاصة بحالات التداعي البدائية . غير أنه ، ما دام لا يمكن أن يوجد غير نوع واحد من التسهيل ، نضطر الى الظن حدساً بتعارض هاتين النتيجتين . كيفما كان الأمر ، يمكن بلا شك جعلهما متوافقين ويمكن تفسيرهما وذلك بالتذكير بأن تسهيلات التفكير لم تقدر على الولادة وعلى جعل نفسها محسوسة إلا عندما ارتفع مستوى [المحاصَرة] ؛ خلقت تسهيلات حالات التداعي لدى حالات المرور الكامل أو الأولي للكميات ، كي لا تظهر من جديد إلا عند اللحظة حيث تكون مثبّتة هذه الشروط الضرورية لمرور حر [1] . لا ننكر التأثير الفعلي الممكن لتسهيلات التفكير على تسهيلات حالات التداعي .

نتوصل هنا الى اكتشاف خاصية أخرى للحركة العصبية المجهولة . إن الذاكرة مصنوعة من التسهيلات . إن ارتفاع مستوى [المحاصَرة] لا يغيرها ، رغم أن بعض التسهيلات لا تعمل إلا عند مستوى محدد . إن الاتجاه الذي تلتزمه الكمية لم يطرأ عليه تغيير بحكم تبدّل المستوى ، ولكن بالمقابل ، طرأ عليه تغيير من قبل كمية التيار والمحاصرات الجانبية . عندما يرتفع المستوى ، تتنقل الكميات الصغيرة (ك) بشكل أسهل .

الى جانب التفكير التأملي والتفكير العملي ، نميّز تفكيراً مولّداً

---

(١) كلمة « umgebenden » أي المجاور ، قد طبعت خطأ في الطبعة الالمانية عام ١٩٥٠ عوضاً من كلمة « ungebunden » أي غير مرتبط ، حر .

أو ذاكريا الذي يمتزج جزئياً مع التفكير العملي من غير أن يشمله تماماً . إن التذكر هو شرط مسبّق لكل محاولة للتفكير الانتقادي . إنه يتبع عكسياً حق الادراك الحسي بذاته ، المسلك الذي التزمته العملية المتعاقبة التأملية المعيّنة وذلك من غير هدف (عكس التفكير العملي) ، ولكنه يستعمل بنطاق واسع ، أعراض النوعية . أثنـــاء هذه المسيرة المعكوسة ، تصطدم العملية المتعاقبة بحلقات وسطية التي كانت قبل الآن لا واعية ولم تترك أي عَرض من النوعية . غير أنهـا تظهر بعد فوات الأوان . نستنتج بأن مرور التفكير بحد ذاته ومجرداً من أعراض النوعية ، يترك وراءه بعض الآثار . غير أنه في بعض الحالات ، يبدو بأننا لا نقدر على افتراض حضور آثار متروكة من جانب حلقة من التفكير إلا لأن نقاطهـــا المتعلقة بالانطلاق والوصول النهائي ، تعطى بواسطة أعراض النوعية .

على أي حـال ، إن حالة قابلية التوالد الخاصة بالعمليات المتعاقبة التأملية ، تمتد وتتعدى اعراض النوعية . بإمكانها ان تصبح واعيـة بعد فوات الأوان ، رغم ان النتيجة التي تقدمها ، تترك وراءها بعض الآثار ، زيادة على المراحل الوسطية .

أثناء حالات التفكير – أكانت تأملية ، انتقادية أو عملية – بالإمكان أن تتولد أحداث طارئة من جميع الأنواع ، فيجدر سردها بالتفصيل . إن التفكير قادر على بلوغ **الكدر** أو **التناقض** .

لننظر مليـــاً الى الحالة حيث يكون التفكير من الصنف العملي المصحوب بتثبيت للهدف ، يجتذب توليد الكدر . تفيدنا التجربة الأكثر بساطة بأن حـالة من هذا النوع تزعج العملية المتعاقبة التأملية . كيف

يمكن ان يتولد ذلك ؟ عندما تولّد الذكرى بعض الكدر، ذلك بعامة لأن الادراك الحسي الموافق له قـــد سبب عند لحظة التولد ، شعوراً مكدراً ، إذن ، عند اللحظة التي كانت فيهـا مرتبطة بحادث طارىء مؤلم ، (راجع الفصل الأسبق « تجربة الألم ») . نعلم بأن مدارك حسية من هـــذا النوع تستأثر بالانتباه وهي تثير بشكل اقل اعراضاً تخص نوعيتها بالذات عوضاً من اعراض النوعية التي تخص رد الفعل المتهيج ؛ إنها تنضم تشاركياً الى تصرفاتها الانفعالية المختصة بهـا والدفاعية . اذا مـــا درسنا مصير مدارك حسية متشابهة في حال تحويلها الى صوَر ذاكرية ، نلاحظ بأن حالاتها الأولى في التكرار تستمر في توليد نفس الانفعال كذلك نفس الكدر الى ان تخسر في النهـاية تلك الخاصية ، وذلك على مر الزمن المساعد . إنها تتلقى في الوقت ذاته، تغييراً آخر. إنها تحتفظ في البداية ميزات النوعيات الحسية ، ولكن مع فقدان إمكانيتها لإثارة التأثرات الأولية ، وتفقد معاً نوعياتها الحسية وينتهي بها الأمر الى أن تصبح شبيهة للصوَر الذاكرية الأخرى . عندمـا تصطدم سلسلة التفكير بصورة ذاكرية ما تزال « جامحة » ، تظهر فجأة أعراض النوعية (غالبـاً من الضعف الحسي) في نفس الوقت مع الانطباعات المغيظة والميول نحو التفريغ حيث تميز عناصرُ المركّب [1] الموتر الخاص. عندها تنقطع سلسلة الأفكار .

ماذا يحل بالذكريات المولّدة للتأثرات الأولية ، عندمـــا تكون « مروّضة » ؟ لا يمكننا إلا الافتراض بأن « الزمن » قادر على إضعاف

---

(١) Combinaison .

إمكانيتها الخاصة بتوليد الانفعالات إذ ، طبيعياً ، يساهم هـذا العامل بالأحرى في تقوية حالة التداعي . بالتأكيد لزم حدوث شيء ما ، خلال « الزمن » حيث تتولد حالات التكرار هذه ، شيء ما يجتذب «خضوع» الذكريات والذي لا يمكن أن يكون إلا الاستيلاء بواسطـــة الأنا أو بواسطة محاصراته . اذا تم تنفيذ رد الفعل هذا ، عند هذه الحالة ، نكتشف بشكل أبطأ من العادة ، الدافع الخاص عند منشأ الذكريات القادرة على إثارة التأثرات الأولية . بينما كانت تشكل آثاراً للأحداث الطارئة المؤلمة ، حوصرت (بمقتضى فرضيتنا حول العذاب) بكمية (ك نَ) المهمة للغاية واكتسبت تسهيلاً متجاوز الحد مؤدياً الى تولد الكدر والتأثر الأولي . لذلك السبب ، وهي صادرة من الأنا ، لزم وجود « ارتباط » قوي جداً غالباً مكرر ، كي يستطيع أن يكون هـذا التسهيل الذي يبلغ الكدر ، متوازناً .

كون الذكريات تحتفظ لأطول مدة ممكنة بخاصية هذيانية، فتستوجب أيضاً تفسيراً بحيث يستفيد مفهومنا الخاص بالهلوسة ، استفادة كبرى . كل شيء يتيح لنـــا الافتراض بأن هذه الامكانية في خلق الهلوسات ـ كذلك إمكانية الذاكرة لتوليد التأثرات الأولية ـ تشير الى ان محاصرة الأنـا لا تمارس أي تأثير على الذكرى وبأن الطرائق الأولية للتفريـغ والعملية المتعاقبة الكاملة او الأولية ، تظل مهيمنة .

لزم بالضرورة افتراض الأمر التالي : عند حالات الهلوسة ، تتدفق الكمية (ك) عائدة نحو (نَ) وفي الوقت ذاته نحو (و نَ) ؛ إن خلية عصبية مرتبطة لا تسمح بتوليـد انحسار كهذا . ثم لنتساءل اذا كانت تلك هي الكمية المفرطة لمحاصرة الذكرى ، جعلت من الانحسار أمراً

ممكناً . غير أنه ، لنتذكر بأن هـذه الكمية الكبيرة جداً (ك) ليست حاضرة إلا للمرة الأولى ، عندما يتولد الحدث الطارىء الحقيقي، مولّد العذاب . لدى التكرار ، لن يصبح الأمر متعلقاً سوى بمحاصرة ذاكرية ذات توتر عادي ، الذي يتوصل مع ذلك الى تحريض الهلوسة والكدر . ينتج عـن ذلك ، اذا كان الأمر هكذا ، فسببه تسهيل ذو أهمية غير عادية . لزم الاستنتاج بأن الكمية (نَ) العادية تكفي لتحرّض انحساراً وتفريغاً ؛ هكذا يكتسب أهميةً هذا التأثير الكبتي المتعلق بالارتباطات مع الأنا .

أخيراً يصبح الأمر ممكناً لمحاصرة الذكرى المؤلمة بقصد منع بعـد ذلك الانحسارات وتخفيض بشكل بالغ توليد الكدر . « تمت السيطرة » على الذكرى وذلك بفضل تسهيل تأملي قدير نوعاً مـا ، للحصول على تأثير دائم وللتصرف مثل الكبت لدى كل ظهـور ثان للذكرى . إن مقاومة المسلك الذي يؤدي الى توليد للكدر ، يتزايد تدريجياً بحكم سوء استعمال ، فتكون هذه التسهيلات خاضعة للتضاؤل فقط تتحول الذكرى الى ذكرى خاضعة [1] شبيهة لجميع الذكريات .

يبدو بأن هـذه العملية المتعاقبة للسيطرة الخاصة بالذكرى ، تخلف وراءها عواقب [2] دائمة في العملية المتعاقبة التأملية . في البداية ، كان ينقطع مجرى الأفكار لدى كل تجديد للنشاط الخاص بالذكرى المشحونة بالكدر . نرى الآن ظهور ميل لعرقلة مجرى الأفكار ، لدى انعـاش

---

(١) أو التي تمت السيطرة عليها Souvenir maitrisé .

(٢) عواقب Séquelles .

الذكرى « المروّضة » ولدى ظهور الكدر . يستعمل التفكير العملي في حينه تماماً ، هذا الميل ، إذ لا يوجد أي عنصر وسطي قابل لإظهار الكدر بشكل مفـــاجىء ، على المسلك المطلوب المؤدي نحو ذاتية مع محاصرة الشهوة . هكذا تولد « الحماية الأولية للتفكير » . ستعتبر في التفكير العملي ، كل توليد للكدر ، كإنذار كإشارة لوجوب التخلي عن مسلك ما . يجب أن تنتقل محاصرة الانتباه الى وجهة أخرى[1] . هنا أيضاً ، يضبط الكدرُ تدفقَ الكمية (ك نَ) تمشياً مع القانون البيولوجي الأول (راجع نهاية القسم ١) . جاز لنـــا التساؤل : لأي سبب لم تتجه هذه الحماية للتفكير ضد الذكريات التي ما تزال مشحونة بالانفعالية . على الأرجح ، حصل اعتراض من جانب القانون البيولوجي الثـــاني (المذكور في القسم ٢) ، إذ يحتاج الى الانتباه عند لحظة حدوث عَرَض للحقيقية . بالاضافة الى ذلك، إن الذكرى التي ما تزال غير « مُروّضة » تظل قادرة على تقوية توليد الاعراض الحقيقية للنوعية . نلاحظ بأن القاعدتين تتوافقان جيداً .

يجدر الاهتمام بمراقبة الطريقة بحيث يتكيف التفكير العملي مع القاعدة البيولوجية الخاصة بالحماية . عند التفكير النظري (التأملي والافتقادي) ، تهمَل القاعدة ، ذلك أمر مفهوم للغاية ، إذ عند كل تفكير مائل نحو

---

(١) راجع كتاب فرويد « تفسير الأحلام » (صفحة ٥١٢ في الترجمة الفرنسية)، حيث يقول: « من ناحية ثانية ، نلاحظ بسهولة بأن مبدأ الضجر ، الذي يقدم للفكر نقاطاً للارتكاز مهمة ، يزعجه في ملاحقته للذاتية. لزم إذن أن يكون ميل التفكير نحو التحرر الافضل بصورة دائمة ، من الضبط المانع بواسطة مبدأ الضجر ونحو تنقيص تطور الضجر حتى الدرجة الادنى المستعملة كإشارة . »

الهدف ، يتعلق الأمر باكتشاف مسلك ما . يمكن إلغاء المسالك التي يتعلق بها الكدر . بالعكس ، لزم على التفكير النظري اتباع قادراً جميع المسالك .

[٤]

لنتساءل الآن كيف يمكن أن يحدث خطأ عند مرور التفكير . ولكن أولاً ، ماذا نعني بكلمة خطأ ؟

لندرس بشكل أوثق العملية المتعاقبة التأملية . إن التفكير العملي[١] حيث تمت ولادته ، يظل أيضاً هدفها النهائي . تنجم عنها ، جميع أنواع حالات التفكير الأخرى . توجد ميزة أكيدة ، ذلك أن توصيل التفكير ، مثلما ينم ذلك في التفكير العملي ، ينفّذ على الفور ، من غير انتظار حالة من التوقع للترسخ ، وذلك لسببين : ١) لأنه يوجد مكسب للوقت لبلوغ الفعل النوعي و ٢) لأن حالة التوقع لا تساعد التفكير بشكل خاص . إن أهمية السرعة أثناء المرحلة القصيرة ما بين الادراك الحسي والفعل ، يتوضح أمرها عندما نرى بأية سرعة تتلاحق المدارك الحسية ، عندما تمتد العملية المتعاقبة التأملية كثيراً ، تصبح النتيجة غير قابلة للاستعمال . لأجل هذا السبب ، إننا « نصمم (عن سابق تصور) [٢] .

يتم اكتشاف بداية العمليات المتعاقبة التأملية المشتقة من التفكير العملي ، في تكوين القرار [٣] . يتوصل الأنا الى ذلك ، وذلك باستعمال

---

(١) عملي : عكس نظري ، تطبيقي pratique .

(٢) préméditer .

(٣) formatin du jugement .

الاكتشاف الذي تم حدوثه داخل تعضيته ، مع التأكيد (ما أشرنا اليه سابقاً في الصفحات السابقة) بأن المحاصرات الحواسية تتطابق جزئياً مع حالات جديدة صادرة من جسم الفاعل بالذات . بهذه الطريقة ، تنقسم عقَد الادراك الحسي الى جزء ثابت غير مفهوم ، الغرض ، والى جزء آخر متغيِّر مفهوم – صفات أو تحركات هذا الغرض . دائماً ، تظهر « عقدة الغرض » من جديد مصحوبة « بعُقد صفاتية » متنوعة ؛ إذن ، يصبح الأمر ممكناً للتسجيل للفكر المسالك التي ، انطلاقاً من هذين النوعين من العُقد ، تبلغ الحالة المرجوة « للغرض » ، ذلك بطريقة ، كما يقال، قيِّمة بوجه عام والتي هي غير منوطة بالادراك الحسي الحقيقي، عند هذه اللحظة بالذات . هكذا إن عمل التفكير الذي يرافق القرار وليس العُقد الحواسية المنعزلة وغير المنظَّمة ، يشكل توفيراً مهماً . لندع جانباً مسألة معرفة الأمر التالي : هل الوحدة السيكولوجية التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة ، هي أيضاً ، ممثَّلة ، ضمن سلسلة الأفكار ، بواسطة الوحدة العصبية المتوافقة (خارج الوحدة التي تمثلها الصوَر الشفوية) .

من الممكن دائماً حدوث أخطاء في تكوين القرار . في الواقع ، ليست عُقد الأغراض (أو الحركات) متماثلة تماماً أبداً ، وبين عناصرها المتباينة ، البعض منها ، اذا أُهملت ، قادرة على أن تسبب الاضطراب فيما يخص بلوغ الحقيقية . هذه النواقص تنجم عن ميل (حيث نقوم نحن ببرهنته هنا بالذات) نحو استبدال الخلية العصبية الوحيدة بالعقدة – ويحدد ذلك بواسطة التعقيد البالغ للمقومات . تلك هي اخطاء القرار الناتجة عن مقدمات منطقية .

سبب آخر للخطأ راجع الى أن الادراك الحسي للأغراض الحقيقية لم يكن كاملاً لأنها كانت موجودة فيما وراء حدود حواسنا . يتعلق الأمر بأخطاء بواسطة الجهل، أخطاء حيث لا يمكن لأي كائن بشري تجنبها. إنما ، في حالات أخرى ، بعض المحاصرات النفسية المسبقة العائبة ، بإمكانها أن تتولد (عندما لا يعير الأنا انتباهه للمدارك الحسية) . في مثل هذه الحالة ، نستطيع بلوغ المدارك الحسية غير الصحيحة وسلسلة الأفكار الناقصة . عندما يتعلق الأمر بأخطاء ناتجة عن انتباه غير كاف .

اذا التزمنا الآن كمقومات للعمليات المتعاقبة التأملية ، العُقد المقررة والمنظّمة جيداً وليست الأكثر بساطة، عندما يفسح لنا المجال كي نقلل العملية المتعاقبة التأملية نفسها . في الواقع ، اذا مرّ المسلك المؤدي من الادراك الحسي الى الذاتية مع محاصرة الشهوة، خلال صورة للحركة م[1] ، من المؤكد بيولوجياً بأنه في حال الحصول على الذاتية ، تكون (م) مزودة بالعصب كلياً . إن تزامن الادراك الحسي و (م) ، يولّد تسهيلاً مهماً بين الاثنين ، وسيثير الادراك الحسي التالي هذه الـ (م) من غير تدخّل بقية الأفكار. (كل ذلك يفترض مسبقاً وبالطبع امكانية ترسيخ الارتباط ، في كل حين ، بين المحاصرتين) . إن الارتباط التسلسلي[1] بين الأفكار حيث يفرض التأسيس أصلاً مجهودات كثيرة ، قد أصبح بحكم المحاصرة الكاملة والتزامنية ، تسهيلاً مهماً . إن السؤال الوحيد

---

(١) Connexion التزمنا هذا التفسير : الارتباط التسلسلي ، تمييزاً عن الارتباط (Lien) .

الذي يطرَح في صدد هذه الحالة الأخيرة ، هو معرفة الأمر التالي : هل يتبع التسهيل دائماً المسلك الذي تم اكتشافه في البداية أو هل يستطيع التزويد بخط ارتباطي تسلسلي أكثر مباشرة . يبدو بأن هذه الامكانية الاخيرة هي في آن واحد أكثر احتمالاً وأكثر ملائمة ، لأنه ، بهذه الطريقة ، لم يعد لازماً للتثبيت للفكر المسالك التي لزم أن تبقى حرة لأجل الارتباطات المتسلسلة الأكثر تنوعاً . عندما يترَك المسلك البدائي ، لزم أن نتوقع اختفاء تسهيله وتصبح النتيجة مثبتة بشكل أفضل بواسطة ارتباط تسلسلي مباشر . من جهة أخرى ، نجهل أين يجب وضع نقطة الانطلاق الخاصة بالمسلك الجديد . لو كانت المحاصرتان W و M مرتبطتين تشاركياً[1] مع الثالثة ، لوجدنا بسهولة ، حلاً للمشكلة .

نستطيع كذلك التأكيد على أهمية الجزء الخاص بالعملية المتعاقبة التأملية التي تتجه من الادراك الحسي حتى الذاتية مروراً بالصورة المحرّكة . تكون النتيجة متشابهة عند الحالات حيث يثبت الانتباه الصورة المحرّكة ويشركها بالمدارك الحسية – هذه المدارك التي حصل تثبيتها مرة اضافية . هنا أيضاً ، يترسخ هذا التسهيل للتفكير مذ أن تتهيأ الفرصة الحقيقية لذلك .

في هذا النوع من النشاط الذهني ، تكون امكانيات الخطأ غير مؤكدة ، أول الأمر . إنما من المؤكد بأن التفكير يلتزم أحياناً مسلكاً سيئاً وبأن يمكن تنفيذ الحركات غير المفيدة، مع أنه عند حالة التفكير

---

(١) associés .

العملي ، لا يتعلق الاختيار إلا بالتجارب قابلة للتوالد .

بقدر ما ينمو عدد الذكريات ، بقدر ما تولد بلا انقطاع مسالك للانتقالات . لهذا السبب من الأفضل متابعة حتى النهاية المدارك الحسية المتنوعة حتى يتم اكتشاف المسلك الأكثر ملاءمة . تلك هي مهمة التفكير التأملي الذي يظهر على هذا المنوال كتحضير للتفكير العملي ، مع أنه في الواقع لم يتطور إلا انطلاقاً من ذلك وفي حقبة متأخرة . تكون النتائج مفيدة بالنسبة لأكثر من نوع خاص بمحاصرة الشهوة .

إن الأخطاء التي تصيب التفكير التأملي ، تظهر جلية . إنها وليدة لتحيزية التي تظهر للعيان عندما يعجز تجنب المحاصرات الخاصة بالهدف، تعزى أيضاً الى خاصية عدم الاكتمال الذي يصمد ، حتى اللحظة حيث يتم اكتشاف جميع المسالك . هنا ، إن الظهور التزامني لأعراض النوعية يشكل بالتأكيد مكسباً هائلاً . عندما يتم اختيار هذه العمليات المتعاقبة التأملية وضمها الى حالة من التوقع ، يصبح الامر ممكناً بالنسبة لجميع حالات التداعي ، وذلك منذ البداية حتى النهاية ، للمرور بواسطة مسلك اعراض النوعية ومن غير اجتياز كل الامتداد الخاص بالأفكار ؛ لا يهم اذا كانت مجموعة النوعيات متوافقة كلياً مع مجموعة الأفكار .

في التفكير النظري ، لا يلعب الكدر أي دور ، لذلك أمكن ملاحقتها حتى بعد « ترويض » الذكرى .

سنفحص أيضاً نوعاً آخر من التفكير : التفكير الانتقادي أو المراقِبة . إنها تساهم في العمل عندما تبلغ حالة التوقع ، رغم الخضوع الصارم للقواعد ، الملاحقة من جانب العمل النوعي، لا بعضَ الاشباع ،

ولكن الكدَر . إن التفكير العملي ، من غير أن يتجه نحو هدف عملي ، وهو يعمل كأنه بحكم اللذة ، يحاول ، وهو يستدعي جميع اعراض النوعية ، تجديد المرور الخاص بالكمية (ك نَ) بكليته [1] ، حتى يكشف بعض الخطأ الفكري [2] أو بعض العيب السيكولوجي . هذا التفكير ذو صنف تأملي ، يمارس تأثيره على غرض معين ، أي على سلسلة من التصورات . بتنا نعرف مما تتكون [العيوب السيكولوجية ؟] . ولكن ماذا نعني **بأخطاء المنطق** ؟

في سبيل وصفها باختصار ، نقول بأن هذه الاخطاء تتكون من إهمال **للقوانين البيولوجية** التي تقود وتأمر مجموعات الافكار . تفيدنا هذه القوانين فيما يتعلق بالشيء الذي يرتكز عليه الانتباه وبأي وقت يستحسَن أن تتواقف العملية المتعاقبة التأملية . انها محمية بواسطة المجازفات الخاصة بالكدر ؛ فهي التجربة التي تجعلها أن تولد وبامكانها أن تتحول مباشرة الى قوانين منطقية (ذلك ما يستحسن عرضه تفصيلياً) . هكذا إن الكدر الفكري الخاص بالتناقض ، الذي يسبب توقيف التفكير المراقِب ، فليس هو سوى الكدر المتراكم بقصد حماية للقوانين البيولوجية والمتحرك انطلاقياً [3] بواسطة عملية متعاقبة تأملية مغلوطة .

---

(١) في الطبعة الالمانية ١٩٥٠ ، وردت خطأ كلمة نوعية بدلا من كلمة كمية .

(٢) erreur intellectuelle .

(٣) déclenché .

يتم برهنة هـذه القوانين البيولوجية ، فعلياً ، بواسطة شعور الكدر الذي تثيره الأخطاء المنطقية (١) .

يجب أن نفهم الفعل كمحاصَرة كاملة في آن واحد ، للصور المحرّكة المنقولة الى الحيّز الاول أثناء العملية المتعاقبة التأملية وربما أيضاً ، للصور المحركة الموجودة ضمن العنصر الارادي للفعل النوعي (عند الحالات حيث يكون الامر متعلقاً بالحالة التوقعية) . يوجد هنا التخلي عن الحالة « المرتبطة » وإهمال للمحاصرات الخاصة بالانتباه . فيما يخص إهمال الحالة « المرتبطة » ، يتعلق الامر بلا شك ، بانخفاض المستوى ، من المستحيل توقيفه ، داخل الأنا ، لدى المرور الأول للكمية الصادرة من الخلايا العصبية المحركة . يجب أن لا نتوقع تفريغاً كلياً للأنا بواسطة بعض الأفعال المنعزلة ، ولكن بواسطة أفعال تتضمن إشباعاً كاملاً تقريباً . من المفيد تأكيد الامر التالي : ينفّذ الفعل ليس بالاتجاه العكسي للمسلك الذي التزمته الصور المحركة ، ولكن بواسطة اجتياز المسالك المحركة الخاصة . لهذا السبب أيضاً ، إن التأثر الأولي، المتعلق بالحركة ، ليس بالضرورة التأثير الذي نرغبه ، الذي يمكن أن يتولد لو كان الأمر متعلقاً فقط بتعاكس (٢) المسلك الأصلي . أثناء الفعل ،

---

(١) في « تفسير الاحلام » لم يفعل فرويد سوى لمس هذه المسألة . كتب (صفحة ٤٢٥ في الترجمة الفرنسية) : « إن تفكيرنا الخاص باليقظة (التفكير الوجداني المسبق) يتصرف تجاه العناصر التي يزودها الادراك الحسي تماماً مثل الوظيفة التي درسناها في صدد محتوى الاحلام . يضع تنظيماً ، يدخل علاقات ، يجلب اندماجاً مفهوماً يتوافق مع انتظارنا . »

(٢) أ) تعاكس inversion . بالمعنى الخاص بعلم الرياضيات . ب) لواط سحاق : inversion sexuelle . ج) انعكاس (في الصفات والخصائص) بالمعنى الكيماوي.

لزم حصول ترسيخ للمقارنة الجديدة بين تبليغات [1] الحركات التي سيتم تنفيذها والحركات المحاصرة مسبقاً . يجب أن تكون حالات الإعصاب التقويمية مهيجة كي يتاح اكتساب الذاتية . نلاحظ هنا تكرار الحالة الشبيهة لحالة المدارك الحسية ، مع تنوع أقل وسرعة متزايدة وتفريغ كامل على الدوام ، ويختلف الحال اذا كان الامر متعلقاً بالمدارك الحسية . إن القياس التشابهي الذي نلاحظه بين التفكير العملي والتفكير الفعال يستحق التسجيل ، رغم كل شيء . إنه يبين لنا بأن الصوَر المحركة هي حسية . إنما هناك واقع يستحق بوجه خاص لفت النظر اليه : في حالة الفعل ، تكون المسالك المجتازة جديدة . لم يعد الامر متعلقا بتقهقر بسيط في المسالك القديمة ، ذاك ما يبرهن فيما يبدو بأن خط توصيل العناصر العصبية ، مثبت بقوة . من الممكن إذن أن تملك الحركة العصبية عند الحالتين ، خاصيات مختلفة .

إن الصور المحركة هي مدارك حسية وبهذه الصفة ، تملك طبيعياً نوعيات وتثير الحالة الواعية . لا يمكننا التأكيد كذلك بأنها تجذب اليها بالذات ، انتباها ملحوظا . إنما نوعياتها مؤثِرة قليلاً وبلا شك أقل تنوعا من نوعيات العالم الخارجي . ولا تنضم بالتالي الى الصور الشفوية، لكنها تجد استعمالها الجزئي ضمن حالات التداعي هذه . لنتذكر بأنها لا تنبثق من أعضاء حسية مكونة بشكل رفيع ، ولكن نوعيتها ، هي بلا شك ، رتيبة . (راجع القسم (٧) : مسألة النوعية) .

---

(١) تبليغ annonce أو دليل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة المترجم : مسلك العقلاء ومنهل ناجح للشفاء	٥
بعض الكلام على العمل الفردي	١١
المقدمة	١٤
القسم الاول : تصميم عام	١٩
المدخل	٢١
المفهوم الاول الاساسي مدلول الكمية	٢٢
المفهوم الثاني الاساسي نظرية الخلايا العصبية	٢٦
وجهة نظر بيولوجية	٣٤
مسألة الكمية	٤١
الألم	٤٣
مسألة النوعية	٤٦
الحالة الوجدانية الواعية	٥٣
طريقة عمل الجهاز	٥٧
مسالك التوصيل (ن)	٦٢
تجربة الإشباع	٦٦
تجربة الألم	٧٠
التأثيرات الأولية وحالات الشهوة	٧٥

الموضوع	الصفحة
المفاهيم الأولى للأنا	٧٧
التفكير القادر على الإدراك المنتج	٨٥
الذاكرة وقدرة التمييز	٩١
التفكير والواقعية	٩٥
العمليات المتعاقبة الأولى : النوم والنعاس	١٠٠
تحليل الأحلام	١٠٥
الوجدان الواعي في الحلم	١١١
القسم الثاني : مبحث الأمراض النفسية	١١٥
مدخل	١١٧
الأكذوبة الأولى	١٢٦
الأكذوبة الأولى الهستيرية	١٣١
القسم الثالث : محاولة بيانية للعمليات المتعاقبة (ن) الطبيعية	١٣٧
محاولات بيانية للعمليات المتعاقبة (و) الطبيعية	١٣٩